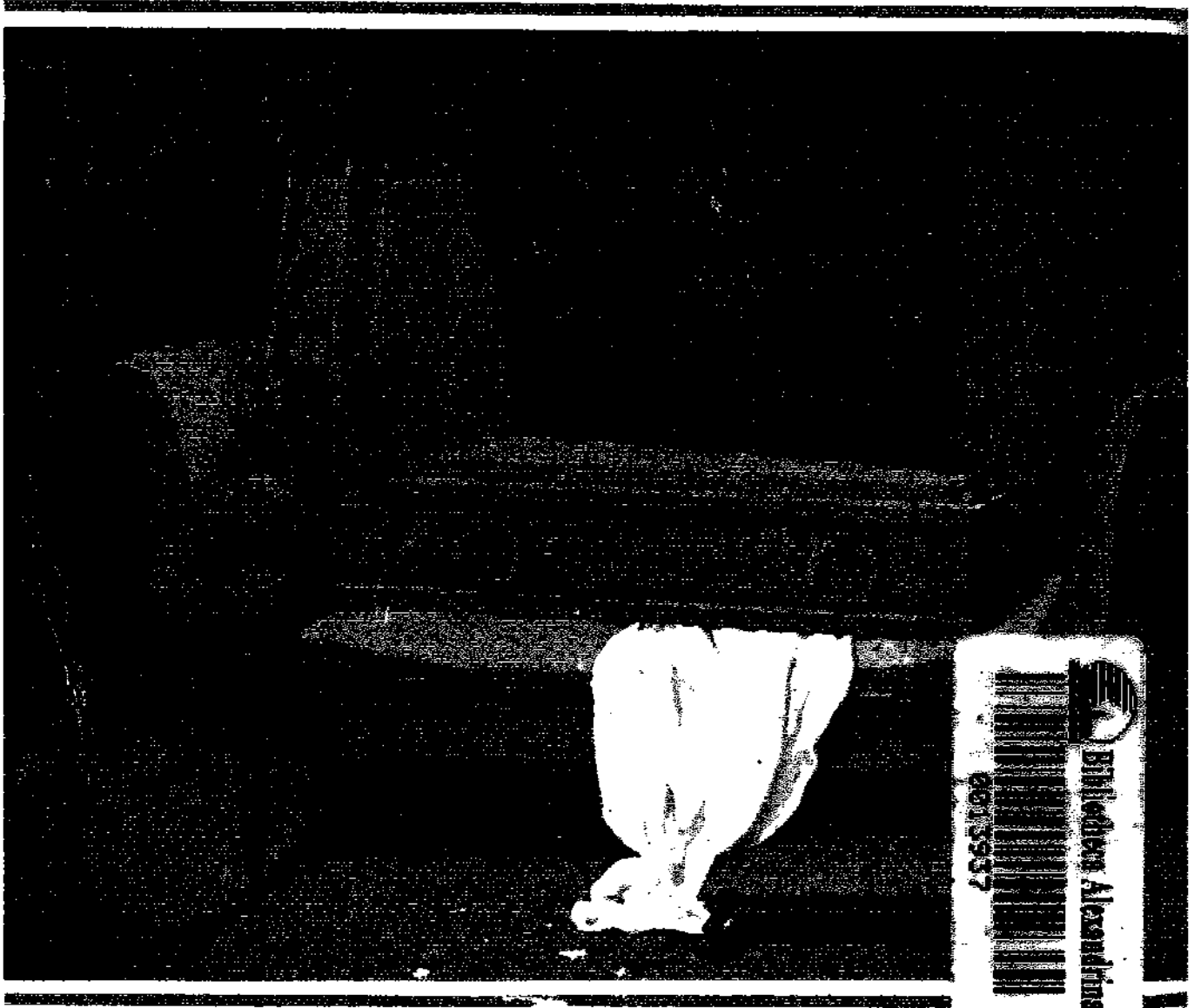


غادة السمان

كوابيس بيروت



الوقت

اهدي هذه الرواية ،
الى عمال المطبعة
الذين يصفون في هذه اللحظة حروفها
رغم زوبعة الصواريخ والقنابل
وهم يعرفون
ان الكتاب لن يحمل اسماءهم ...
اليهم ،
هم الكادحون المجهولون دونما ضوضاء ،
كسواهم من الأبطال الحقيقيين
الذين يعيشون ويموتون بصمت ،
ويصنعون تاريخنا
بصمود الانبياء ...

اليهم ،
هم الذين يكتبون الكتب كلها
دون ان تحمل تواقيعهم
إلى اصابعهم الشموع التي اوقدوها
من أجل ان يطلع الفجر
اهدي هذه السطور

٧٦ / ٩ / ٢

غاده

كابوس ١

حينما طلع ضوء الفجر ، كان كل منا يتأمل الآخر بدهشة : كيف بقينا أحياء ؟
كيف نجونا من تلك الليلة ...
فقد قضينا ليلة كانت القذائف والمتفجرات والصواريخ تركض فيها حول بيتنا كأن
عوامل الطبيعة قد أصيبت بالجنون ... وكانت الانفجارات كثيفة كما في فيلم حربي
سيء لكثرة مبالغاته ...

لم نكن قد صبحونا جيداً من « عدم نومنا » حين اتخذنا قراراً سريعاً : إخراج
الأطفال والعجائز من البيت وخلال عشر دقائق من الركض المستعري بين غرف البيت -
لجمع حوائج سبتين. لنا حتماً فيما بعد أنها غير ضرورية - ، كانت (القافلة) تهبط
سلم البيت إلى الحديقة ومنها إلى سيارتي العتيقة ... وكان زجاجها الأمامي مثقوباً برصاصة
عند موضع رأس السائق أي عند موضع رأسي والزجاج الخلفي محطماً ومتماسكاً في
مكانه . تحسست رأسي وفرحت حين وجدته في مكانه دون أي ثقب إضافي . منظر
الرصاص في الزجاج زاد من جنوننا لتهريب الصغار جداً والكبار جداً ، كأن لأصوات
المتفجرات مفعول غامض كالمخدرات ... كأنها تطلق في الأعماق طاقة سرية مخترنة
وتلجم في الوقت ذاته صوت المنطق اليومي والعقل العادي المتداول ...

يبدو أننا أغلقنا أبواب السيارة علينا بعنف ، فقد تساقط الزجاج المحطم الذي كان
متماسكاً رغم شروخه ، وسقط فوقنا قطعاً بيضاء صغيرة كالثلج الشرير ...
كان خوفي الوحيد من ان تقرر سيارتي العتيقة ممارسة إحدى ألاعيبها كأن تعنصم
بأرض الشارع وتضرب اليوم عن العمل . كان قلبي يضرب كطبل أفريقي مجنون وأنا

أدير مفتاح (الكوفتناكت) .. تحركت السيارة . كالمنومة معاً بهسباً كنت. اتودها ، وفي ذهني خاطر واحد : التخلص من حمولتها البشرية — الأقل صبراً على الرعب .. والعودة إلى البيت .

أنزلتهم أمام بيت بعض الأقارب ، وعدت في الدرب نفسها مثل دمية ربط (زميركها) وهي تؤدي دورها على الخط المرسوم لسيرها دونما توقف (وحتى لو اصطدمت بطرف سجادة أو بساق الكرسي ، فانها ستظل تتابع حركتها الآلية) ... هذا ما حدث لي حين مررت بحواجز المسلحين الجدد الكثر ... لم اتوقف ولم اسرع ، ولم اشعر بأنني رأيتهم ، ولم تبد على وجوههم غير الدهشة ... كان من الواضح ان السيارة مصابة بزخات من الرصاص وخصوصاً عند موضع رأسي ، وكان المدهش اني ما زلت أحيأ واقودها دون اي تعبير على وجهي ، وربما ظنوا اني مت حين أطلقت النار على السيارة ، وها أنا اقودها في طريقي الى الآخرة ... ووحدتها الدرب إلى الآخرة سالكة وآمنة وبلا حواجز ... وهكذا لم يستوقفني أحد .

كابوس ٢

حين غادرت سيارتي ذلك الصباح ، ودخلت إلى البيت سالمة — حتى اشعار آخر — لم أكن أدري أنها المرة الأخيرة التي ساغادر فيها بيتي إلى ما بعد أيام طويلة ... وأنني منذ اللحظة التي أغلقت الباب خلفي ، أغلقته أيضاً بيني وبين الحياة والأمن ... وصرت سجيناً كابوس سيطول ويطول ..

وانني عدت وأخي إلى البيت لنلعب دور السجناء ... ولو علمنا لتزودنا بشيء من الطعام في درب العودة ... ولو علمنا ربما لما عدنا ... ولو .. ولو ... وزرعنا « لو » في حقول الندم ، فنبتت كلمة يا « ليت » ! ...

كابوس ٣

لم تكن قد سمعنا الراديو بعد . فقط حينما عدت : تذكرت أنني للمرة الأولى منذ شهر غادرت البيت دون ان استمع إلى ارشادات المذيع شريف ، أو أغسل وجهي على الأقل ...

وحين انصبت اليه ، كان الأوان قد فات . كان المسلحون يحتلون فندق « هوليدي إن »
المواجه لبيتنا الصغير العتيق والذي يطل فوق أعلى طوابقنا (الثالث) . كما يشرف جبل
من الاسمنت والحديد فوق كوخ لفلاح مسالم في قعر الوادي ...
بعدها فقط استيقظت وأدركت انني كأعزل محكوم بالاقامة الجبرية وسط ساحة
معركة ! ... فاتصلت بالبقال لاطلب مؤونة من الطعام . لا جواب . تلفنت لدكاكين
الحي كلها . لا أحد يرد . تلفنت للجيران ، فرد ابنهم أمين مدهوشاً ، أين تعيشين ؟
الا تعرفين ما يدور حولك ؟ ...

* * *

كابوس ٤

أين أعيش ؟

ردني مؤاله إلى واقع مروع . أعيش في ساحة حرب ولا أملك اي سلاح ولا اتقن
استعمال أي شيء غير هذا النحيل الراكض على الورق بين أصابعي تاركاً سطورهِ
المرتجفة كآثار دماء جريح يزحف فوق حقل مزروع بالقطن الأبيض ...

أين أعيش ؟ ...

يبدو انني اسكن بيتاً من الشعر (بكسر الشين) . وسادتي محشوة بالأساطير ، وغطائي
مجلدات فلسفية . وكل ثوراتي وقتلاي تحدث في حقول الأبجدية وقذائف اللغة ...
أين تعيشين ؟

ودوى انفجار ... وشعرت بوخزة : لماذا لم اتعلم المقاتلة بالسلاح — لا بالقلم
وحده — من أجل ما أؤمن به ... ؟ كم هو خافت صوت صرير قلبي على الورق حين
يدوي صوت انفجار ما ... وقررت : ان الوقت ليس وقتاً لتقريع الذات على عادة
الأدباء الذين يقعون في أزمة ضمير كلما شب قتال ويشعرون بلا جدوى القلم ... المهم
ان أعيش ، فالحياة هي وحدها الضمان لتصليح اي خطأ إذا اقتنعت فيما بعد أنني على
خطأ .. والوقت ليس وقت مراجعة ذاتية او حوارات فلسفية . كانت الانفجارات
تتلاحق ، وقررت ان أواجه الواقع الملموس حالياً وأن أحدد موقعي من ساحة الحرب
بطريقة (عسكرية) ، واحصائية ! ...

* * *

كابوس ٥

وجلست اكتب على ورقة : ١ - لا سلاح في البيت على الإطلاق . حتى سكا كين المطبخ ليست جادة . إذن لا مجال للبحث في القتال إلا على طريقة غاندي ! .. (ملاحظة : هذه ليست بطاقة دعوة لاغتيالي !) ..

٢ - ليس في البيت سوى طفاية حريق واحدة صغيرة . بحثت عنها ووجدتها في المكتبة . لاحظت أنها أصغر مما كنت أقدر ، وأنها لا تصلح لأكثر من اطفاء سيجارة ! ..
٣ - مخزون الطعام يكفي لحمسة أيام . هذا إذا أكلنا على طريقة النحل ! ...
٤ - الماء الخاص بالشرب مقطوع ، أي أن عليّ غلي الماء الملوّث قبل شربه ... شرط عدم انقطاع الغاز لاشعال النار ! ...

٥ - في البيت شمعتان شامت الصدف أن تكون إحداهما سوداء . أي في حال انقطاع الكهرباء سيكون عليّ أن استعين بضوء الصواريخ والقذائف ! ..
٦ - أنا خائفة .

٧ - أنا خائفة جداً .

ومزقت الورقة إلى قطع صغيرة صغيرة ، ثم عدت أتسلى عن صوت الرصاص بمحاولة اعادتها كما كانت قبل أن أمزقها .. حرفاً لصق الآخر .. كانت محاولة صعبة جداً ، كمحاولة احياء علاقة أشبعناها تمزيقاً ... كمحاولة اعادة الفرح إلى قلب في (غشاء من نبال) ...

ضحكت من نفسي . ها أنا أسكن ساحة حرب وأدافع عن جسدي بتلاوة أشعار المتنبي كما لو كان تعويذتي ! ...

° ° °

كابوس ٦

هدأ الرصاص قليلاً ...

اقتربت من النافذة ... كذلك فعلت الام التي تقطن في الدور الثالث من البناء المقابل لبيتي . وكان البقال العجوز يضع لها بعض أرغفة الخبز في سلة مربوطة بجبل وقد وقفت هي خلف خشب النافذة وأدلت اليه بالجبل دون أن تخرج حتى يدها .. أما هو فقد احتسب بمدخل البناء .

كان الهدوء شاملاً ، وتخيّلت ان المقاتلين يغسلون وجوههم ويبردون أسلحتهم ...
وقررت أن اناادي البقال - المغامر وأمارس الشيء ذاته ...

وبدأت السيدة ترفع السلة المربوطة بالحبل ببطء شديد . وقررت : لا بد أن يديها
ترتعدان الآن ! ... ولكن السلة كانت ترتفع باستمرار وكان حبلها دقيقاً حتى بدت
مثل سلة تصعد في الفضاء نحو الحائطين ، حاملة رغيف السلام ... لاحظت أن عيون بقية
الجيران المختبئين خلف النوافذ كانت أيضاً تتابع طيران سلة الخبز في الفضاء ، وأحسست
ان قلوبنا جميعاً مثل قلب واحد يصلي من أجلها .. كأن السلة صارت طفلاً .. طفل المحبة
والأمان والتواصل مع عالم البسطاء ..

وظلت السلة تعلو حتى وصلت إلى حدود الطابق الثاني ، والصمت المتوتر ما زال
يسود ...

وفجأة انطلقت رصاصة .
لا أدري هل سمعنا صوتها أولاً أم شاهدنا السلة تهوي في الفراغ مثل رجل سقط
من الشرفة .

وفهمنا جميعاً بومضة برق مدلول ما حدث : هنالك قناص ما أطلق رصاصة على
الحبل الرفيع .

لقد عرض مهارته أمام أهل الحي جميعاً . لقد قال لنا جميعاً : انني قادر على إصابة
أي هدف مهما كان دقيقاً رنجيلاً . قلوبكم كلها تحت مرماي . شرايينكم كلها أستطيع
ان اثقبها شرياناً شرياناً . أستطيع أن أصوب داخل بؤبؤ عيونكم دون خطأ . أستطيع أن
أصوب رصاصتي إلى أي جزء يحلو لي من أجسادكم .

وحين هوت السلة ، شعرت بأن الحي كله تحول إلى قلب واحد يتنهد بنغمة .
وأدركنا أننا جميعاً سجناء ذلك الغول الغامض المختبئ في مكان ما والذي يتحكم بدورتنا
الدموية والعقلية والنفسية لمجرد أنه يملك بندقية ذات منظار تدرب عليها بعض الوقت ..
ولتذهب إلى الجحيم كل الساعات التي قضيناها في الجامعات والمختبرات لتتعلم ! ..

وحين سقطت السلة ، سقطت آمالنا معها وتكومت على الرصيف جثة تحتضر . حين
سقطت السلة ، حزنا كما لو ان طفلاً سقط من على دولا ب مدينة الملاهي وانطفأت
الأضواء والضحكات كلها دفعة واحدة ...

كان واضحاً أننا فهمنا جميعاً رسالة القناص . ومن ساعتها أغلق خشب نوافذ الحي
كلها بإحكام .. ولم تفتح ! ...
وداعاً أيتها الشمس ! .

* * *

كابوس ٧

الرصاص التي انطلقت من مكان ما انقطع حبل سلة الخبز كانت تعني ببساطة أننا
سجناء تماماً . ان الهرب من ساحة الحرب أضحي مستحيلاً ، والحصول حتى على رغيف
خبز أضحي طموحاً مبالغاً فيه ! ..

خطوة واحدة إلى الشارع ويصيبنا ما أصاب أرغفة الخبز ...
ووجدتني أفكر بجسدي باعتباره مادة قابلة للخرق بالرصاص والكسر والحرق
والتمزيق ، ولا أدري لماذا تذكرت الاعلانات عن الساعات التي هي (ضد الماء
والكسر) ، وشعرت بالغيرة منها ... وأسفت لان الجسد البشري هش ، والحياة لا يمكن
أن تتكرر ... إنها الخسارة الوحيدة التي يستحيل تعويضها ! تذكرت قولاً « الشيخوخة
هي الجنازة الوحيدة التي يمشي فيها الفقيد على قدميه » وشعرت بشهية للشيخوخة ،
وتخيلت نفسي واصدقائي وقد ابيضّ شعرنا وتجاوزنا السبعين ونحن نروي ذكريات هذه
الأيام المرة ... كم هو مفرح أن تصير الشيخوخة طموحاً ! ...
أخي وأنا ، لم نتبادل أي حوار ... كأن صوت الرصاص يلغي اللغة ... كأنه يخلق
جداراً عازلاً ، أو أنه يزيد من وعي الانسان بفرديته وعزلته حيث يسقط كل في
بئر الخاصة ...

* * *

كابوس ٨

سقطت في بئرني إلى الداخل حيث الكوابيس .. انفتح الباب ..
دخل صديقي بقامته المشلودة كسهم افريقي . أردت أن أقول له أنني افتقدته ولكنني
لم أفتح فمي ولم يصدر عني أي صوت ومع ذلك فهمّ ما أود قوله ورد علي دون أن
يقول شيئاً : وأنا افتقدك وأحبك ...
كان جسده مغطى بالدم ، وفي صدره العاري بعض قطع الزجاج المكسر .. وكان

جسدي أيضاً قد بدأ يتزف من مساماته كلها . لا أدري إذا كان يؤمني أم لا . كان
محيطه فرحة لا تصدق ... كنت قد ناديته : تعال أينما كنت .. تعال كيفما كنت ...
وها هو قد جاء . ضمته إلى صدري فانغrust قطع الزجاج المكسر في صدري
أيضاً وشعرت أننا التحمنا وتواصلنا ...
ثم دوى انفجار ... وتمزق الكابوس ... لقد قذف بي الانفجار إلى الأرض ،
وكنت خائفة ووحيدة ، وأنزف من الداخل فقط ! ...

* * *

كابوس ٩

قررت أن احارب الكوايس بالعمل .
لكن الغروب كان قد بدأ يرمي بعباءته الرمادية فوق جراح الحي .
تلصصت من النافذة . السلة ما تزال في مكانها على الأرض كجثة بلا حراك ...
وقطعة البحر المتبقية لي بعد بناء فندق « الهوليدي إن » لم تكن كالعادة أفقاً من الحمرة
الجميلة ... كان هنالك دخان يعلو عند الأفق ويغطيه ..

* * *

كابوس ١٠

هدأ الرصاص قليلاً ...
لم يبق إلا الليل والصمت ... صمت غامض متوتر .. خيل إلي أنني اسمع اصواتاً
خافتة .. أصوات استغاثة .. ظننتني واهمة ، ثم تذكرت دكان بائع الحيوانات الأليفة
المجاور لنا ... لعل صاحبها يعمل قناصاً مثلاً ، وهو مشغول عن رعايتها واطعامها
بصنع الدمار (ام تراه لا يستطيع الوصول اليها ؟) ...
وتخيلتها داخل اقفاصها ... تشم رائحة البارود والنار ، وتلتقط كهارب الخطر ...
لكنها عاجزة عن الهرب ، وعاجزة عن الدفاع عن نفسها ... اين صاحبها الذي اعتاش
من الاتجار بها وبيعها وشرائها ؟ ..
ألم يسجنها باسم تأمين العيش (الكريم) لها ؟ ... ولماذا يغيب عنها مع غياب الزبائن
والصفقات وقدم الخطر ؟ ... اين صاحب دكان الحيوانات الاليفة ؟ تراه للملم ثروته
التي جمعها من بيعها وهرب بها إلى أوروبا مع من هرب ؟

(اذكره . في وجهه قسوة لا يخفيها تهذيبه البروتوكولي مع الزبائن . مرة رافقت زميلة إلى دكانه . كانت ترغب في شراء قط سيامي تعرف مواصفاته جيداً : أزرق العينين . بني الأذنين . أبيض الجسد . بني الذيل . وعبثاً حاولت اقناعها بأنها بحاجة إلى إنجاب طفل بدلاً من الهرب إلى تبني قط . كانت ما تزال تعشق صديقها المتزوج الذي لن يطلق أم اولاده ولن يتزوجها . كان يصدق عليها النقود كتعويض (عطل وضرر) عن شبابها المهلور ، وكانت فيما يبدو راضية بالصفقة مع حبيبها الثري ، وقد قررت ترويج قصة الحب بتبني قط ، ما دام انجابها غير ممكن ! ..

دخلنا إلى الدكان ... الجزء الخاص بالغرباء - والقادمين من الخارج لاتمام صفقاتهم - نظيف وجميل ومرتب كأنك في دكان سويسري ، وفيه كل ملاهي عصرنا الاستهلاكي كما في شارع الحمراء وطريق المطار وصالة الترانزيت والروشة والكازينو مثلاً ... وقفت صديقتي في هذا القسم النظيف العصري المفروش (بالسيتنلس ستيل) و (الموكيت) اما انا ، فتجاوزت أسوار الدكان (السياحية) إلى الداخل ... وكان صوت صديقتي يتناهى إلي وهي تعرض طلبها : اريد قطاً سيامياً - ابن عيلة - أزرق العينين أسود الشاربين بني الذنب أبيض الجسد .. وكان صاحب الدكان يرد : كل طلباتك موجودة ... والاسعار متهاودة .. سأحضر لك ثلاثة قطط تختارين منها بنفسك .. قالت : اترك اختيار القطط لذوقك ... ورن الهاتف .. والنشغل في حوار - صفقة حول كلاب للصيد وكنت اتسلل إلى ما وراء السور الديكور الذي يحجب حقيقة وضع بضاعته ..

خلف السور ، كانت الاقفاص المختلفة الاحجام والاشكال مرصوفة ومتلاصقة كما في مقابر الفقراء ... الشمس لا تطلها ولا الرياح ولا الندى ولا السماء الزرقاء .. وداخل الاقفاص كانت هناك مجموعة كائنات حية تشبه البشر في تنوعها : كلاب مختلفة الأنواع ... بودل وكانيش وكلاب صيد ... قطط رمادية وبلدية وشامية ... أرانب بيضاء حمراء العيون ... أرانب رمادية وسوداء .. فئران بيضاء .. فئران ملونة ... أسماك ملونة صغيرة تسبح في « الأكواريوم » المضيء كأنها فراشات مائية ... عصافير مكسورة الخاطر والجناح ... بلبل وحسون وبيغاء وغيرها ... حيوانات من مختلف الألوان والاشكال والأمزجة يجمعها القفص ، والسجن ، والبؤس ... كانت متعبة ، فلا القطط تنمو تماماً ولا الكلاب تعوي جيداً ولا العصافير تغني .. وتساءلت : تراه يضع دواء

مخدراً في أوعية الماء الخاصة بها ؟ ام انه لا يطعمها بما فيه الكفاية لتكون قوية فتثور وتضرب رأسها بالقفص وتعض يد السجان والزبون ، البائع والشاري ؟ ...
كانت عيناى قد الفتا الظلمة النسبية بالداخل ، ورغم موسيقى الجيرك العالية التي حرص صاحب الدكان على وضعها في (الجناح السياحي) من دكانه ، فقد استطعت ان اسمع الصوت الموحد الحزين لشعب الحيوانات الأليفة في الأقفاص ... كان يشبه صوتاً قادمًا من مظاهرة للمرضى والجرحى والمتعبين ، لكنه صوت تهديدي شرس الوعيد ...
كان من الواضح ان البائع يطعمها بما فيه الكفاية لتبقى على قيد الحياة فقط ، كي يظل قادراً على بيعها ، يسقيها مياهاً نصف ملوثة ، ويخرجها إلى النور حينما تكاد تختصر ، وهمه الوحيد ابقاؤها حية كي لا تموت ويخسر تجارتها .. ولكن ، أبة حياة ؟ هذا موضوع آخر لا يهمه . علاقتها مع الشمس والغابات والبحار والليل والقمر وأفراح المواسم والحرية ، كل هذه أمور لا تعنيه مطلقاً ..

وفجأة وجدته خلفي . جاء ليحمل لصديقتي الحيوان المطلوب . فتح أحد الأقفاص . أخرج منها قطاً حشر حشراً في مجال حيوي ضيق مع سبعة قطط أخرى من نوعه . لاحظت ان بعضها جريح ، ولعلها في غمرة ضيقها بسجنها وبؤسها وسوء وضعها ، تقتتل فيما بينها ، وبعضٌ بعضها بعضاً ، وصاحب الدكان يرحب دونما شك بهذه الظاهرة حيث يعرض البؤساء كل منهم صاحبه ، بدلاً من ان يهجموا جميعاً عليه هو مرة واحدة .. هو العدو الحقيقي ...

أخرج القط من القفص وأغلقه بعناية . التفت نظرنا . كان من الواضح انه فهم انني أفهم ما يدور وان ذلك لم يعجبه أبداً . قال بصلف : ممنوع دخول الزبائن إلى المخزن !

قلت : لست زبونة . انا من (الفريق الآخر) ..

وتمت الصفقة بين رفيقتي المدحورة عاطفياً المتلهية بهومها الشخصية عن حقيقة ما يدور .. ودفعت ثمن القط ، وخرجت بعد ان زودها البائع باسم طيب بيطري من المفروض ان تذهب اليه فوراً لتلقيح القط وقص اظافره ! ... البائع اولاً . ثم البيطري . وربما بعده الصيدلي . وبعده لا ادري ماذا من حلقة مافيا المنتفعين .. وحين خرجت صديقتي بالقط لاحظت ان (راعي) الدكان تنهد الصعداء . كان سعيداً بخلاصه من فم

اضافي يجب اطعامه . لم اشعر بأية عاطفة تربط بين صاحب الدكان وشعبه من الحيوانات الاليفة .. انه بخرجها من القفاسها ويعيدها اليها دون ان يرف له قلب ! .. وحتى في السجون ، ثمة علاقة انسانية تنشأ بين السجنان وسجينه (وكلاهما من طبقة مسحوقة واحدة) ، اما صاحب الدكان ، فلم ألاحظ ان بينه وبين « رعيته » لمسة حنان واحدة ... لا جسر بينهما غير المصالح ...

وهو قادر على ترويضها جميعاً ، خانعها وشرسها ، بالتجوير والسجن والإذلال وشروط العيش الرديء بحيث لا تقوم لها قائمة في وجه طغيانه ولا مبالاته ...

وذهبنا إلى عيادة الطبيب البيطري وكانت فخمة ونظيفة وخاصة بطبقة الققط المرفهة .. ولا ادري لماذا تذكرت مشهد امرأة كانت تضع طفلها تحت خيمة في عكار وقد تمسكت بفصن شجرة وهي تصرخ دون طبيب او معين او قطعة قطن واحدة ... كنت قد ذهبت يومها لكتابة تحقيق صحفي عن مجاهل عكار ، وشاهدت يومها كيف يولد الاطفال ليتعمدوا بالتراب فوراً ... فقد وضعت طفلها الذي تلقتة منها أرض الحقل وامترج دمه بالأشواك ، ثم امسكت بحجر وقطعت به حبل الخلاص ، بينما وقفت انا مذهولة أمام وجهها المتجلد الصامد الشبيه تماماً بالصخرة التي كنت قد تحجرت قربها ! .. ودخلنا بالقط إلى عيادة الطبيب . وبمساعدة الممرضة وصديقتي تم الامساك بالقط وقص أظافره ، وكان هو يصرخ بما تبقى له من قوة مناضلاً للبقاء على سلاحه الطبيعي بينما المجهول يحيط به من كل جانب ...

وبعد عملية قص الأظافر ، جاء الطبيب بآبرة غرسها في فخذ القط ، وتذكرت أنا بهلع أن طفل الفلاحة العكارية قد يكون قد مات الآن لأنه لم يجد من يلقحه ... وبعد ذلك قرر الطبيب ان من الضروري إعطاء القط جرعات محددة من الفالسيوم كي لا تبحث عن قط تمارس معه ما تمارس ، وتحمل ، لأنها ما زالت صغيرة السن ! .. والحمل خطر على صحتها العزيزة !

وهنا جنت رفيقتي . قطة لا قط ؟ كانت تريد قطعاً ذكراً . وصاحب الدكان باعها الاخ القط على أنه ذكر لا انثى . تلقت النبأ بحزن شديد كأمرأة انجبت طفلتها السابعة وقد حلف زوجها بالطلاق في حال عدم إنجابها لذكر ! ... ثم قبلت ما هو « مكتوب عليها » وبدأت تشتم البائع الغشاش بينما البيطري يعطي

جرعات الفاليوم للقطعة ، ثم بدأت تشم الطبيب البيطري حين طالبتها الممرضة بالفاتورة .

* * *

كابوس ١١

لا ... لست واهمة .. الصوت الذي اسمعه ، الشبيه باستغاثة جماعية قادم من دكان بائع الحيوانات الأليفة المجاور ...

إنها لم تجمع بعد ... لكنها خائفة ككل أهل هذا الحي السجناء . كل أسرة في قفصها .. كل أسرة لا ترى أين هو المسؤول الحقيقي عنها .. وماذا يفعل .. هل يرى الحرائق ؟ هل يسمع صوتها ؟ هل وهل وهل ؟ ... البيوت أقفاص ... ونحن رعيته البسطاء من غير المسلحين ... هل كانت غلطة أننا صدقنا ان هنالك فرقاً بين الغابة والدكان ؟ ...

وشعرت بجدران قفصي تضيق .. تضيق ... وبدأت أضرب رأسي بقضبانها ... ودوى انفجار هائل ... وانكسر الصمت المتوتر الرهيب ، بسلسلة رهبة من الانفجارات ...

وقررت : في المرة القادمة لن أسمح لأحد بقص أظافري . لن اصدق مزاعم صاحب الدكان . لن أكون عزلاء ! ...

* * *

كابوس ١٢

لم يتوقف شلال النار .. لاحظت أنني جالسة على الأرض ، مكومة تحت مستوى النافذة . قررت أنني لا أعرف من أين ستأتي الرصاصة التي ستستقر في صدري ، وبالتالي لماذا لا أتمدد في فراشي وأتعلم النوم رغم الرصاص ؟ ..

لقد عشت في ظروف لا حدّ لقسوتها ... واضطرت إلى النوم في أمكنة مسكونة بالبرد والغربة والأشباح الرمادية ، وعلمت نفسي التكيف مع ما حولي من عذاب ... بل انني روضت نفسي ذات مرة على النوم ، وقد سلطت على وجهي مصباحاً كهربائياً ساطعاً .

اليوم علي ان أتعلم النوم في ساحة حرب ... استجمعت إرادتي ، وكل ما أعرفه من

اليوغا ، وبدأت أفكك أعضاء جسدي غني عضواً بعد الآخر كما لو كنت دمية عرض لواجهات المخازن . أمرت ساق اليمنى بالنوم . ثم ساق اليسرى . بدأت أمر أعضاء جسدي واحداً بعد الآخر بالسفر عن الزمان والمكان إلى براري النوم ... تأكدت ان التجربة ممكنة التحقيق ، لكنها تحتاج إلى كثير من المرات ... فقد دوى انفجار شديد ، وانفطرت من يد دماغي جديدة الأعصاب التي كنت أملكها خيطاً بعد الآخر واسيطر بها على جسدي عضواً بعد الآخر ...

وبعد فشلي هذا اصبحت بنكسة . بدأت اسمع الانفجارات أعلى مما هي في حقيقتها (او هكذا خيل إلي) ،

ثم حدث شيء ، غريب .. دخل جسم غريب إلى الغرفة ، كائن ساخن الحيوية ، مروع النشاط ، سمعت صوته يضرب خشب الباب ثم المقعد فالسرير فالباب ... في البداية لم أفهم ما حدث بالضبط ، كانت رائحة حريق خاصة تفوح من الغرفة ... كانت رصاصة ما او شظية قد اخترقت طرف باب الغرفة وفجرت ساق الكرسي ثم اصطدمت بالسرير وارتدت عنه إلى الباب الآخر فخرقته ... ووقفت احرق مذهولة ... كانت شظايا الخشب تملأ أرض الغرفة والسرير وشعري وتغطي المجلات المتناثرة على الأرض .. وكنت أتأمل موضعها بهلع .. ففقدت الحشبة تماماً على عمق ١٠ سنتيمترات على الأقل ، أما الكرسي الواطيء الذي أصابته فقد تنثر بين شظاياها بعض قطع المسامير التي صهرت وانكسرت تماماً كما لو ان مطرقة جهنمية ضربتها ...

شيء آخر روغني ... كنت أظن الرصاص (وهذه أول مواجهة عملية بيننا) ينطلق في خط مستقيم ثم يصيب هدفه .. أما هذه الرصاصة (ام الشظية ؟) فقد تحركت في الغرفة كما لو كانت كرة بلياردو أو قطعاً مذعوراً ... ركضت في الاتجاهات كلها هادمة نظرياتي (العسكرية) كلها عن السلامة في البقاء على مستوى الأرض او التمدد ، فالقطع ان مستوى انفجار (الرصاصة أو الشظية) كان على مستوى خفيض جداً لا يزيد ارتفاعه أكثر من ٣٠ سم عن الأرض ... وذهلت . من اين دخلت الرصاصة إياها ؟ وكيف ؟ وحيرني الأمر حتى أنساني خوفاً ، وخرجت إلى الغرفة المجاورة من حيث بدأت الشظية (نزهتها) وخيل إلي أنها ربما كانت قد انطلقت من داخل المنزل .. على الجدار المقابل لأول باب ضربته ، فوجئت بندبة وقد سقط بعض الكلس والتراب عن الجدار إلى

الأرض ... اذن من هنا مرت الرصاصة ... ولكن ، من اين دخلت والنوافذ كلها مغلقة بالخشب والزجاج غير مكسور .. وبدأت أحرق جيداً في النوافذ حين دوى انفجار ، فقررت وقف (تحقيقاتي العسكرية) ، واغلاق (ملف القضية) مؤقتاً والحرب إلى الطرف الآخر من البيت ...

هذه المرة كنت خائفة حقاً ... فقد وعيت للمرة الأولى ان الرصاص لا يمشي على الصراط المستقيم وانما قد يمشي في خط متعرج كجرد يركض من جدار إلى آخر ... ووعيت أيضاً أن الرصاص لا يمشي بالضرورة فوق مستوى النوافذ ، وان القضية أكثر تعقيداً بكثير ، من المعلومات السطحية التي كنت قد جمعتها من السينما البوليسية والروايات . وأدركت أنني أواجه عدواً أجهله تماماً ، وبهذا الشعور البائس تمددت باستسلام على اريكة في الصالون ...

* * *

كابوس ١٣

تمددت على الاركة في الصالون ، وكان الظلام دامساً وجميع الأنوار مطفأة ... تعلقت نظراتي بشقوق النوافذ المحكمة الاغلاق المفتوحة الزجاج . كنت قد اغلقت خشبها وتركت النوافذ الزجاجية مفتوحة . هكذا قرأت في كتاب بوليسي انه من الأفضل في حال الانفجارات ترك زجاج الغرف مفتوحاً كي لا يحوله الضغط إلى سكاكين تتناثر في كل مكان وتنغرس في جسد الضحية . ارتعدت لهذا الخاطر . ظلمت اتأمل شقوق النوافذ . (والقمرات) اي النوافذ الصغيرة المستديرة الملاصقة للسقف والتي لا خشب يغطيها وتوجد في أكثر البيوت الدمشقية والبيروتية القديمة . كان الغرض الأساسي منها إدخال مزيد من النور نهائياً إلى الغرف الشاهقة الجدران ، والسماح بدخول ضوء القمر إليها ليلاً ...

اما الآن ، فقد بدت لي (القمرات) المزينة بالزجاج الملون مثل اسلحة فتاكة ... مثل عشرات الحناجر التي لا أدري متى يطلقها الانفجار من عقابها هكذا تمددت وحيدة في قلب الظلام ، وخلف القمرات كان المنظر مذهلاً .. فقد كانت الصواريخ والقنابل المنفجرة في الجو تضيء الليل كالبرق ، وتلتع خف القمرات مثل عاصفة برقية رعديّة جهنمية لا تهدأ ... احسست بخوف بالغ ... ولكنني ،

رغم كل شيء ، لم أتمالك نفسي من الاعجاب بجمال المشهد بينما القمريات يزجاجها الملون تسطع فجأة وتنطفئ ثم تسطع بتسارع « بسيكاديليك » ساحر الألوان ...
وقررت انني مثل رجل يهوي إلى قاع شلالات نياجارا بينما هو ما يزال مسحوراً بجمال المشهد ... او مثل شخص يسقط من الطابق الخمسين ويعجب بزهور الشرفات التي يمر بها في دربه إلى الموت ..
كان كابوساً جمالياً سادياً عجيباً ... ومع جنون البرق ، جاءني حبيبي القليل ، وكان ما يزال مغطى بالدم والجراح ... فاحتضنته وقبلته ولم أبالي بأن جسده بارد ودماؤه متخثرة .. وكنا نقلب معاً على أصوات الرصاص التي استحالت شفرات معدنية باردة .. وصرخت به : ما زلت احبك ...

* * *

كابوس ١٤

شاهدت الرجل يخرج من قلب الظلام . شاهدت الرجل يضع على وجهه قناعاً اسود . شاهدت الرجل يطرق الباب الكبير . شاهدت الرجل يقابل الرجل (الكبير) . شاهدت الصفقة تتم . شاهدت الرجل يخرج حاملاً معه « مسحوق الجنون » . شاهدت الرجل يقبض الثمن . شاهدت الرجل يتسلق الجبل . شاهدت الرجل يرمي « بمسحوق الجنون » في النبع الذي تشرب منه بيروت . شاهدت مسحوق الجنون بمس النبع ، فتشتعل النار في الماء ، وتنفور فقاعات من جمر ... شاهدت الرجل ينحني على النبع ويشرب ، فتستحيل أصابعه العشر مخالب حيوانية ، ويطول شعره ، وتسقط عنه ملابسه كالقشرة الجافة ، ويخرج منها جسده ، وقد تحول إلى جسد غوريلا غاضبة ، يمد القرد يده فيكسر غصناً أخضر ويحمله مهتاجاً راكضاً نحو المدينة ... والنار تشتعل من موطيء قلعيه وقد شب في داخله بركان حيواني لا يقاوم ، ونهم إلى الدم .. الدم ... ويتدفق « نبع الجنون » ليسقي أهل المدينة ... بعضهم يشرب ولا يدري ... واستيقظت ، وأنا لا أدري ما إذا كنت قد نمت ام لا ... شربت ام لا ..

* * *

كابوس ١٥

انه الخريف .. وأنا سجينه كبقية سجناء دكان بائع الحيوانات الأليفة .. تلك الجبال

الخضر ، لن أحترقها كسهم محشو بالفرح ... تلك الدروب القروية الجبلية ، تلك
الوديان ، تلك المراعي والسهول قد أموت قبل أن أراها ثانية ... هذا هو يومي الثاني
وانا سجين (ربما كنت دوماً سجيناً دون ان ألحظ ذلك ، تماماً كمخلوقات دكان بائع
الحيوانات الأليفة ... وربما كنت أعني سجيناً دوماً واحاول كسر قضبانى ، وما شوقي
الدائم إلى الأفق والسماء إلا من بعض شوقي إلى الحرية الداخلية ... الحرية الحقيقية لا
حرية التنقل فقط في سجن كبير جدرانها هي حدوده ، واسمه الوطن !) ..

تذكرت صديقي ... كأن الرعد يستنبت صورته في أعماقي كالكمأة .. كنا - هو
وأنا - من رعايا الخريف ... كنا نمتلك البحر والجبل بعد انحسار الناس عنهما ، وكنا
نركض مع الأغنام ونزق مثلها : ماع ... ماع ... ونضحك طرباً لهذه اللغة غير
الملوثة ...

إنها تمطر . وقد هدأ القصف ، كأن مقاتلي الأرض يقفون دقائق حداداً على فصل
الخريف الذي يهمون باغتياله ، لحظة وصوله من السماء ..

* * *

كابوس ١٦

لم يطل السكون ... بدأت الطلقات المتقطعة بإيقاعها الخفيف ايذاناً بدخول العزف
الأكثر شراسة وعنفاً ..

مع الانفجار الكبير الأول للممت نفسي من موضعي على الأريكة حيث قضيت الليلة
السابقة ..

حاولت السيطرة على أعصابي لقضاء يوم عادي قدر الإمكان كي لا أصاب
بالجنون ! .. كان ذلك مستحيلاً . كنت فيما مضى ابدأ يومي بمطالعة الصحف ، ولم
أجدها طبعاً خلف الباب .. (لا يمكن لهم توزيعها على البيوت بالمصفحات مثلاً ! وحتى
لو ارتدى باعة الصحف ثياباً واقية من الرصاص لما استطاعوا الوصول إلى بابي حيث
مركز القتال) ...

ورغم معرفتي الأكيدة بأن القطط نفسها لا تجرؤ على التجول في شارعنا ، لكني
تلفنت إلى دكاكين البقالة المجاورة ... وطبعاً لم يرد أحد ... اقتربت من النافذة وشققته
قليلاً ...

كان المشهد مروعاً ... كانت النوافذ كلها مغلقة ... بأن الحبي فرغ تماماً من مكانه .. كأنهم تسللوا جميعاً هاربين تحت جناح الظلام ..
و حين يهدأ الرصاص ، ويكف المطر عن السعال ، يسود سكون متوتر مخيف ...
سكون كابوسي لا يصدق ، كالسكون داخل التوابيت المغلقة منذ قرون ، سكون يجعلك تحن إلى سماع أي صوت ، حتى ولو كان طلقة رصاصة .. أريد أن اسمع صوتاً حياً .. أي صوت .. كان أخي ما يزال نائماً (أم تراه مغلق العينين فقط ؟) قررت الاستماع إلى الراديو ، وهو أداة لا تتعامل معها عادة إلا مؤخراً وللإستماع إلى المذيع شريف فقط ، الذي يخاطبنا بصدق مباشر دونما حذقات خطابية سمجة .. فأخفض صوت المذيع . بحيث لا أميز الغناء أو الموسيقى أو الثرثرة ، ولكنني أعرف نبرة صوت شريف ، وحين اسمعها أرفع صوته ، وحين ينتهي الكلام أعود إلى حشو القطن في فم المذيع .. وهكذا ..

اليوم ، لشدة وحشي ، أدت زر الراديو ، وكان المذيع يقول : قضت العاصمة ليلة هادئة ما عدا طلقات متقطعة في منطقة القنطاري وحول فندق « الهوليداي إن » ...

وصرخت به : ألا تنجبل من هذه الكذبة ؟

لم يرد علي وإنما تابع قراءة نشرة الأخبار وانتقل فوراً للحديث بأسهاب عن الحرب الأهلية في ... البرتغال ..

صرخت به : ولكنني لا أملك ... أنت مجرد حنجرة ، وهم يحشونها بالمعلومات الكاذبة ... أنت مجرد أداة للجريمة ..

لم يرد المذيع علي وإنما تابع قراءة الأخبار عن أنغولا ..

وصرخت به : أنت المسدس ، وهم اليد والطلقة ... وحينما تقع جريمة ، يجب سجن القاتل لا المسدس ...

ولم يرد المذيع علي وإنما بدأ يتحدث بأسهاب عن حالة الطقس في جزر الكناري ... وبدأت الانفجارات تتوالى ... وتتعالى متلاحقة ... ونهض أخي مذعوراً يبحث عني ...

وقررت : نشرة الأخبار الحقيقية هي ما نسمعه من الريح ، لا من الراديو ..

• • •

كابوس ١٧

حاولت ان اتلهم عن صوت الرصاص باعداد وجبة طعام ... كان في المطبخ بعض ثمرات من البطاطا المنسية في ركن معتم . اخرجتها وغليت الماء تمهيداً لسلقها . حملت واحدة منها وقبل أن اغطسها في الماء المغلي فوجئت ببرعم أخضر وقد بدأ ينمو من أحد جوانبها . ذهلت . شعرت بأن البطاطا (التي اراها كتلة بنية جامدة) هي جسد حي ، يخفق بالحياة ويتوالد ويتكاثر ... وضحكت كثيراً من نفسي وانا أصرف النظر عن فكرة سلقها (حية) ! ... اعرف انني كنت دائماً عاجزة عن قتل حتى بعوضة أو ذبابة أو نملة ، لكنني أعرف أيضاً انني اذا جعت بما فيه الكفاية ، فقد أصبح على استعداد لالتهام أول مخلوق أجده في طريقي حتى ولو كان رجلاً .

مأساتي اني اعتبر اي حادثة قتل مأساة كونية ... قطف زهرة هو بالنسبة إلي حادثة قتل ... وحينما يهديني أي انسان باقة من الزهور أشعر بحزن عظيم لأنهم أغتالوها لأجلي واذا أحاط أحدهم رقبي بعقد من الياسمين فأن بدني يقشعر ، كما لو أحاطوه بجبل ربطت اليه عشرات الجثث

موقفي من الحياة يمثل البروفسور « لورين ايشلي » الذي صاح بعفوية مخاطباً الدم الذي تدفق من فمه حين زلّت به القدم على الرصيف : « أنا آسف لما سببته لكم .. آسف جداً » وكان البروفسور يعتذر من دمه ! وحين ظنه زميله مجنوناً قال له مفسراً : كل نقطة دم هي مجموعة لا متناهية من الخلايا الحية ... وانا حين سقطت وبالتالي نزلت ، سببت موت عدد كبير منها ، فخاطبتها وهي تحتضر على الرصيف مثل قبيلة من السمك المرمية على الرمل الحار لتموت .. لقد سببت للكون الذي اقطنه عدداً هائلاً من الوفيات (خلايا الدم) وهو عدد يفوق عدد الناس الذي قد يقضي عليهم انفجار ذري ! ... أجل ! إن مصرع أية حياة هي كارثة كونية لا بالنسبة لكوننا فحسب ، بل ولبقية الكواكب الأخرى أيضاً ، فالكون بمجمعه يصبح تشبيهه ببحر من الحياة ، وكل منا نقطة في هذا البحر الشاسع ، وموتها يؤثر على نحو ما بكل شيء ، والقتل جريمة بحق الحياة ، لا بحق القتل فقط ... لذا ، وأياً كانت قناعاتي ، كان من الصعب جداً جري إلى الإقرار بالعنف وسيلة لأي شيء رغم معرفتي الأكيدة بأن التبديلات الجينية في تاريخ الكرة الأرضية لم تتم إلا عبر العنف .. كان ذلك يعذبني ... ذلك التناقض في

داخلي بين العنف واللاعنف، عليّ الوصول إلى قناعة عقلية بخصوصه ... ولكن، هل يمكن للعنف ان يولد من مجرد قناعة عقلية ؟ ام من حاجة جسدية للدفاع عن النفس ، وردة فعل عفوية لجائع أمام متخم مثلاً ؟ أم كلاهما معاً ؟ لا أدري . كل ما أدريه هو أن أخي يدور حولي في حالة غيظ بانتظار أن يستقر رأيي على ما سأأكله ، فقد كنت قد قلت له : لن نأكل البطاطا لأنها (فاسدة) ولم أقل لأنها (حية) خوفاً من سحرته ... فتحت البراد من جديد اتأمل ما خلفته جدتي .. لا شيء يذكر غير مخزون جيد من اللحوم ... ومأساتي اني صرت عاجزة تماماً عن أكل اللحوم .. لكثرة ما شاهدت من جثث مرمية في الشوارع على طول الأشهر الستة الماضية – منذ استعمرت الحرب الأهلية – صرت شبه قانعة بأن لحوم أسواقنا كلها هي لحوم بشرية .. ولم أكن قد تحولت إلى حيوان مفترس بعد ... ما زلت أطعم النمل الذي يقطن زوايا بيتنا ، وادافع بضراوة عن كل الكائنات التي تشاركنا مسكننا ، وأخفي دوماً المبيدات التي تتبني جدتي استعمالها رغم غضب اسرتنا لتصرفي (غير الصحي) هذا ... أجل ! لم أذق طعم اللحم منذ مشهور ، فالرصاص يسكن منطقة المسلخ حيث يفترض ذبح المواشي ، فمتى تسنح الفرصة للممارسة ذلك ؟ بينما اللحم البشري مكس في الشوارع ومسلوخ الجلد مقطوع الرأس غالباً ... فكيف آكل اللحم ، ومن يقنعني انني لا آكل قطعة من ذراع صديقي التي طالما ضمني بها إلى ما قبل دقائق من مقتله أمام عيني ؟ ...

... عدت وفتحت الثلاجة فقد يكون فيها بعض الخضار المجمدة المحفوظة ، لكنني فوجئت فيها برأس مقطوع متجلد مسلوخ الجلد ...

وبدأت اصرخ .. واصرخ .. واصرخ .. وعبثاً حاول شقيقي إقناعي بأن ما أراه هو رأس خروف مقطوع لا رأساً بشرياً .. وحمل الرأس المقطوع غاضباً ، وقال انه سيهبط إلى بيت جارنا العم فؤاد في الطابق الأول من البيت العتيق كي يتم طبعه هناك ودعائي للحاق به ..

حينما ذهب ، وجدتي أغلق باب الثلاجة بإحكام ... كنت واثقة من انها مليئة بعشرات الجثث ، وبعضها لم يمت تماماً ، وما زال يصرخ ... ويتعجب ويحتضر على أرضيتها .. أحسست ان جميع ثلاجات بيروت لم تعد صالحة لغير حفظ جثث القتلى المجهولين ... المرميين في الشوارع ..

كابوس ١٨

ساعتان من الهدوء الطويل ... لم اسمع نخلهما سوى اقتحاب رعايا دكان بائع الحيوانات الاليفة .. وكانت أصواتهم تحمل إليّ الخوف والقلق والغضب والحيرة ... (تراها أصواتهم أم صوتي الداخلي) ... منطقياً ، ليس من الممكن أن أسمع أصواتهم ... دكانهم تقع على الناحية الأخرى لحديقة بيتنا ... وحديقة واسعة مهمة تفصل بين بابنا الخلفي وبين الجدار الخلفي لمخزنهم ... لم يحدث أن سمعت أصواتهم قط من قبل ... وربما كان ذلك يعود إلى جلبة الشارع عادة ، وزعيق السيارات التي كانت لا تهدأ ليل نهار وأحاديث المارة والباعة وسيمفونية الحياة الاعتيادية ... أما في هذا الهدوء المطلق – الذي كان يسود هذه المنطقة حين كانت حقولاً منذ نصف قرن ، أي قبل بنائها – فلعله من الممكن (علمياً) سماع أصواتهم ... أم تراها حاسة غامضة هي التي تلتقط كهاريهم ؟ ما الذي يربط بيني وبينهم ؟ ولماذا تعلق أصواتهم تدريجياً ، حتى اسمعها تغطي الحي بأكمله ، خارجة من كل قفص ، ومن كل حجرة مسالمة ، جرحها الرعب والحذر والترقب ... تتعالى الأصوات فأسد اذني بإصابعي واركنس نحو النافذة بحثاً عن مربع في السماء ... السماء غطاء علبة فولاذية !

كابوس ١٩

هدأ المطر ... عادت السماء زرقاء صافية بعد انحسار عجزرة العاصفة ... انه طقس غير مناسب للموت ... والرصاص هادئ منذ أكثر من ساعتين . لعلمهم ناموا نعباً (أي المقاتلين) خلف مدافعهم . لعل ذخيرتهم نفذت . لماذا لا تغادر هذا القفص قبل ان تموت خوفاً أو حرقاً أو جوعاً ؟ ...

تأملت الشارع من النافذة وقررت : اذا مرت سيارة واحدة أو رجل واحد ولم يُطلق الرصاص عليهما فسأغادر هذا المكان فوراً مع أخي أو بدونه . كانت الساعة تشير إلى تمام الواحدة ، وحتى الواحدة والنصف لم تمر سيارة أو مخلوق ، ولم يخرج من النوافذ المقابلة رأس .. وغمرني جو من الرهبة والخوف والضيق ، وقررت مغادرة البيت ... وفجأة ، ظهر كلب على الناصية ... اقرب من كومة القمامة يفتش عن رزقه

اليومي . ثم بدأ يسير على الرصيف ببطء شديد .. وتساءلت : أترأه يلحظ ان الشارع قد تبدل ؟ هل يلحظ خلوه من المارة والسيارات ؟ هل يضايقه ذلك أم يسعده أم انه لا يبالي ؟

وجأة ، انطلقت رصاصة من مكان ما فأصابت الكلب ، وسقط على الرصيف وهو يزعق في ألم بهيمي مؤثر ، وكانت الشوارع الفارغة تردد صدى صيحاته وترددها الجدران كما لو كانت عشرات الميكروفونات ...
انه القناص نفسه .. البارحة قتل رغيفاً من الخبز ، واليوم عاد إلى توكيد وجوده بقتل الشيء الوحيد الحي الذي نجحاً على الحركة في شارعنا الميت ! .

* * *

كابوس ٢٠

كأن كل مخلوق على وجه الأرض حمل طبلًا وبدأ يقرعه .. كأن كل الزواحف الديناصورية المنقرضة مزقت صفحات التاريخ وخرجت تهلر وتصرخ ... كأن الفصول الأربعة تتشاجر ويخرب بعضها بعضاً ..

هكذا يبحثني صوت المتفجرات والقنابل إلى الطابق الثالث المرتفع على التلة التي شيد بيتنا فوقها ... هكذا تأتيني الأصوات موجة من العنف الذي لا يصدق ... كأن السماء انشبت أظافرها بالأرض ... وتحملني الموجة .. تصيبني بما يشبه الإغماء .. تطير بي إلى مراحل غير مألوقة من الوعي .. تذكرني بما فعله بي مخدر ال (ال.اس.دي) يوم جربته ورحلت عبره إلى دنيا من حواسي المنسية ... حواس تقطن كل إنسان لكنه نسي استعمالها منذ قرون .. حواس تستطيع ان ترحل بي إلى أيامي في رحم امي ، وتمكنني من الانتقال إلى كواكب اخرى كونية ، حواس مذهلة القدرة على التقاط ما هو خارج دائرة الحياة الاجتماعية ، ما هو خارج اليومي والمألوف والمعتاد ..

وانا اقف الآن على الخيط الفاصل بين الموت والحياة ، اشعر بحواسي النائمة تستيقظ وتخرج إلى سطح الوعي كخواصة ينشق البحر عنها فجأة ، موجة العنف والصخب اللامتناهي تحملني إلى حيث لا أدري ... واغمض عيني كي ارى جيداً ... كي أراهم ..

* * *

كابوس ٢١

أرى دكان بائع القبعات . أرى الرصاص يثقب القبعات كلها . في كل قبعة عشرات الثقوب .. في مكان آخر ، أرى الرؤوس التي كان مقلداً لها ان تبتاع هذه القبعات وترتديها وهي تتابع حياتها في أمكنة بعيدة مختلفة ... أرى الرصاص يثقبها أيضاً ... كل رصاصة تخترق الرأس في الموقع ذاته الذي اخترقت فيه القبعة التي كان مقلداً للرأس ان يشتريها !

* * *

كابوس ٢٢

اراهم يقتادون الشاب إلى الرصيف . كل ذنبه انه مر في شارع توقفت فيه قبل دقائق سيرة ثقل بعض المسلحين . شقيق احد المسلحين كان قد قتل ، وهو يمتش عن اي كبش فداء . اسمه ليس مهماً ... المهم دينه ... المهم ان يكون من دين مختلف عن دينه ...

امسك شقيق القتل بالشاب الصغير كبش الفداء .. بدأ يشتم دينه . دهش الشاب فقد كان طالباً في الفلسفة وكان يؤمن بالله لكنه يجد الأديان كلها وسيلة لاقتراب الانسان من الله ، وحين تأتية لحظة الحاجة إلى الاقتراب من خالقه ، كان يصلي في أول معبد يمر به كنيسة أو جامعاً ، وان كان يفضل الركوع على ركبته على شاطئ البحر ومناجاة خالقه بعيداً عن الجدران ... تاركاً للريح ذبذبات صلاته تنثرها في الكون الشاسع مضيئة بضع نقاط مضيئة ، تقتل شيئاً من ظلمة البغضاء والبهيمية المهيمنة على عالمنا سحابة شر .

جروه إلى الرصيف . قال لهم : ما ذنبي ؟ .. أخو القتل كان غاضباً . رد عليه ببعض الشتائم . كاد المسلحون يتشاجرون . يقتلونه هنا ام ينقلونه معهم ؟ ... من سيفتله . كيف . سأله أحدهم : كيف تحب ان تموت . قال لهم : لا احب أن أموت . اقترح أحدهم اطلاق رصاصة سريعة على رأسه والتحرك فوراً قبل مرور جماعة أخرى . قال لهم : لا احب ان أموت . أصر الشقيق المفجوع على أن قتل الشاب من حقه هو . قال لهم : لا احب ان أموت . سأله أحدهم : إلى أي حزب تنتمي ؟ قال انتمي إلى « حزب الحياة » . سألوه : ما اسمك ؟ قال : لبنان . اسرتك ؟ العربي . صرخوا به : هذا ليس وقت المزاح . من انت ؟ كرر :

(اسمي « لبنان العربي » ولا أريد أن أموت) .

قال أحد المسلحين « من الأفضل اختطافه والتحقيق معه أولاً ثم « تسويحه » (اي قتله) . « . ودب الخلاف بين المسلحين حول قضية القتل الفوري ام المؤجل ووجهوا اسلحتهم ، كل منهم نحو الآخر ، وانتهر الشاب الفرصة . بدأ يمارس وسيلة القتال الوحيدة التي يعرفها : الركض ...

بدأ يركض على الرصيف كالمجنون ... ركض طويلاً طويلاً ولكنه كان يسمع وقع خطى تركض خلفه ... تعثر وسقط على الأرض ولم يكن الظلام دامساً ، فقد كان نور أحد مصابيح البلدية يسطع في الشارع وأدهشه ذلك فقد أحس بانه في غابة ، وقبل عصور اختراع الكهرباء ، وحتى النار ... والخطى الراكضة خلفه توقفت وشاهد وجه المسلح المصر على قتله .. شاهده بوضوح صاعق .. كان يبكي أيضاً مثله ... قال له : اخي اطفائي ذهب ليطفيء الحريق فقتلوه واعادوه لنا جثة .. ظنه الشاب يشكو له وكاد يرق قلبه لحاله ويسأله مزيداً من التفاصيل ، لكن وجه الاخ تحول فجأة إلى وجه جزار وهو يقول له : وانت ستموت ثمناً لذلك ... انهم من (ملتك) ..

اراد ان يرد عليه ... ان يقول له أشياء كثيرة .. ان يفسر له حكاية (الملة) ومعناها الحقيقي ... لكنه أيضاً أدرك ان الوقت ليس وقت (فلسفة) و (حوار) وانما (اسلحة) ولم يكن يملك اي سلاح .

كان ما يزال في موضع سقطته على الرصيف ، فبذل جهداً جباراً للخلاص من قبضة جزاره والوقوف ، ووجد نفسه يتعلق بافريز رخامي في الجدار ... وكانت حواسه في غاية الحدة والتنبه وعلى ضوء الشارع الشاحب قرأ كتابة محفورة على الرخام : سبيل لوجه الله . مقدمة سليم الفاخوري ١٩٥٥ . كان السبيل جافاً . لا قطرة ماء . لكن المسلح لوى له رقبتة حتى الصقها على الحافة الرخامية للسبيل وبسرعة هوت سكينه على شريان الرقبة الكبير .. شهق وانتهى الأمر بالنسبة اليه ... وظل المسلح يجز عنقه حتى بعد ان تهاوى جسده ، وتدفق الدم من السبيل ، الجاف ربما منذ أعوام ... تدفق الدم .. تدفق .. تدفق ... غسل الشوارع .. صار يعلو .. يعلو .. يغطي الطرقات .. يصل إلى نوافذ البيوت .. كان مثل نبع اسطوري لا ينضب .. يتدفق إلى داخل البيوت .. إلى داخل الغرف ... إلى ركبتي ... خصري .. صدري .. عنقي .. اشهق وانا اختنق بالدم

واصرخ .. واستيقظ (ام تراني انام من جديد في دنيا الحواس المحدودة ؟) ...

* * *

كابوس ٢٣

الا يتعب الرجال ؟ ..
ألا تستريح أصابعهم المشدودة على الزناد ؟ .. فترات الهدوء لا تكاد تذكر ..
وقررت : لا بد وان استبدال المقاتلين يتم خلال لحظات الصمت المتوتر العابرة ..
الآن عاد ذلك الصمت المتوتر المروع .. ارهفت السمع .. سمعت صراخ بعض
الرجال ، لكنني لم استطع تمييز كلامهم .. فقط أصوات نداءات سريعة وحادة كصراخ
الخطر لدى طيور الغابة .

كانت مأساتي ان يتي يقع في منتصف الطريق تماماً بين المقاتلين ... تماماً في الوسط ..
تذكرت الذي قال « خير الأمور الوسط » وترحمت عليه ... لو كان يسكن بيتنا ،
لقال شيئاً آخر ربما .. كنت أعرف ان المقاتلين في الشوارع خلفنا ، لا يد وأنهم يتصلون
بالناس ، وربما يتقاسمون أرغفة (المناقيش) معاً ... أما موقع بيتنا في الوسط تماماً على
تلة مكشوفة من كل الجهات ومحاطة بمحاذق بركة الأعشاب ، كل ذلك جعل الاقتراب
منا أمراً مستحيلاً للطرفين ... وحتى للطرف الثالث من الغربان الذين احترقوا سرقة
البيوت المنكوبة بالحرب ..

كنا كسكان وادي الجذام ، لا أحد يجرؤ على الاقتراب منا .. حتى اللصوص !! ...
وحدها القذائف تجرؤ على زيارتنا وقرع أبوابنا وجدراننا ...

* * *

كابوس ٢٤

انه الغروب ...
دوماً يأتيني حبيبي مع الغروب ... مع الفجر ... مع الرعد .. مع المطر .. مع كل
ما هو مهيب وازلي ..
دوماً يأتيني حبيبي مع الخريف ، كأن الخريف هو آثار أقدامه على الأرض ... يهبط
إلي من جنون سيمفونية الموت والمتشجرات ، ويدخل بمزقاً بالرصاص تماماً كما شاهدته
آخر مرة .. وأركض إلى صدره المزروع بالزجاج المكسر المسنن ، فتغرس قطعة في

صلبري أيضاً كلما زاد في ضمي إليه ، و نلتحم بالموت والوجع ، ونصبر سكاكين
الزجاج جسوراً ، بل وشرابين مشتركة لجسدنا ... وشيثاً فشيثاً يخيم الظلام .. ويتلاشى
بين يدي وانا اصرخ به : ولكنني ما زلت احبك ...

• • •

كابوس ٢٥

« ولكنني احبك » ..

وكانت السيارة تركض بنا في شوارع بيروت في أواخر الربيع الماضي (ربيع ٧٥)
يوم انفجار العنف .. — الجولة الأولى — ...

« ولكنني احبك » ...

وكنا نتحدث عن مهزلة اكتشفناها فيما بعد ، وهي ان الكلمة المكتوبة في خانة
المذهب لديه هي غيرها لدي .. أي اننا باختصار من دينين مختلفين ...

« ولكنني احبك » ...

وكان يبلغني رفض والده القاطع لزواجنا ... بسبب الفارق في الدين ! .

« ولكنني احبك » ...

لم يكن بوسعي ان اصدق ان الأديان وجدت لتدمير الحب بدلاً من اشعال ناره ...

« ولكنني احبك » ...

قال : اذن ستزوج على أية حال .. ستزوج مرة في الصحراء أمام النجوم والكون
وذايتنا والله الحاضر في داخلنا وفي كل مكان ... ومرة في كنيسة ... واخرى في جامع ،
فقد نرضي الجميع ..

قلت : لإرضاء الجميع مستحيل ، وعمل غير اخلاقي . من واجبنا ان نوقف جنون
التقسيم داخل عقولهم ، بدلاً من مسايرتهم ..

وفجأة ، اوقفنا حاجز عجيب غريب ... كان هنالك خيط رفيع من (المصيص)
وقد ربط من طرف الرصيف ، إلى الرصيف الآخر ، ... وأمام هذا الحاجز العجيب
وقفت مجموعة من الأطفال قائلهم واكبرهم في العاشرة من عمره ...

كنا نضحك . عز علينا ان نمزق لهم خيطهم (الحربي) فتوقفنا لحاجزهم . كانوا
جميعاً يحملون العصي كما لو كانت بنادق ، فازدنا ضحكاً ... وطلبوا مشاهدة تذاكرنا

(بطاقات الهوية الشخصية) فأخرجناها لهم وقد سلّتنا المسرحية وقال حبيبي : انهم يذكرونني (بشقاوة) تلاميذي في المدرسة حين كنت ادرس في صفوف الصغار .. وقال لنا الصبي ابن العاشرة : يجب خطف المرأة وقتلها . انها من غير ديننا . اما انت فتستطيع ان تمر .

كان صوته مرعباً وحاداً مثل انياب قط صغير متوحش . وتأملنا وجوه الأطفال فبدت لنا مثل وجوه كبار مركبة على أجساد أطفال ... وبدأت لحاهم تطول ... ووظفهم تكبر ... ووجوههم تتجدد والعرق يتصبب من جباههم ... صاروا مجموعة من قطاع الطرق الأقزام ... خفت وصرخت بينما انطلق حبيبي بالسيارة وهو يسأل : ماذا دهالك ؟ ..

كابوس ٢٦

بعدها بأسابيع ، وكانت المعارك ما تزال مستمرة اوقفنا في المكان نفسه حاجز .. هذه المرة لم يكونوا أطفالاً أقزاماً .. هذه المرة كانت البنادق حقيقية .. هذه المرة كانوا من تلامذة حبيبي فعلاً .. تنهد يوسف بارتياح حين شاهد وجوههم وقال لي وهو يفتح باب السيارة ليحدثهم : انهم تلاميذي فلا تخافي .. اما هم فتحدثوا الينا كأطفال الحاجز الأول . اللهمجة نفسها ... العيون المنومة نفسها كأنما بفعل سحر شرير غامض ... طلبوا تذاكرنا . قال لهم : ولو .. الا تعرفون استاذكم .. انا يوسف ...

كرر تلميذه السؤال بصراحة أكثر . اعطيتهم تذاكرتي وكذلك فعل استاذهم ، حبيبي . بدأ احدهم يشتمني لانني اخرج مع شاب من غير (ملتي) ... وغضب يوسف ، وصرخ بتلميذه : حتى انت يا ..

وفوجئت برد التلميذ . قال له يبرود معلني عجيب : كل ما نعرفه الآن هو انك من دين آخر .. دين الذين خطفوا ابن عمي وعذبوه وقتلوه .. صرخ بهم : ايها الأغبياء .. الا ترون انكم فقراء مثلي .. الفقر ملتنا الأولى ... الفقر يجعلنا حلفاء بوجه الذين لهم مصلحة في متابعة ابتزازنا عن طريق تخديرنا بخلاف ديني ... اسمعوا يا ابنائي ... ورد اصغرهم ، لم تكن لحيته قد نبتت بعد :

— سئمتنا محاضراتك يا استاذ ... تفضل معي ..

ولم يكد حبيبي يدير ظهره ويخطو على الرصيف حتى دوى الرصاص ، وكان صوته في الليل عالياً وشبهاً بزئيق طيور بحرية جائعة فوق جثة طافية ، وتمزق حبيبي أمام عيني . تمزق كتفاه وذراعاؤه وظهره وصدره وكل موضع في جسده كنت قد قبلته ، دفعه الرصاص واخترقه فتهاوى فوق الواجهة الزجاجية لاحتدى شركات الطيران وقد اخترقته سكاكين الزجاج أيضاً ...

لم اصرخ ... كنت مدهوشة ... كان كابوساً لا يصدق ... ركضت إليه ، وانحنيت فوقه ، ثم انفجرت اضحكك واضحك ... كان موته نكتة غير معقولة ... وكان تصميم طائرة اعلانية ما يزال يضيء وينطفئ ... يضيء وينطفئ داخل الواجهة الزجاجية لمكتب شركة الطيران ... طالما حلمنا بالرحيل معاً ... لكن طائرات الحب من الورق ورصاص الواقع من نار ...

صفعتي أحدهم مرات على وجهي قائلاً ان ذلك سيعيد لي رشدي ... وبسكينه حفر لي على ذراعي رمزي الديني .. وكان الألم مروعاً ، وقال لي : كي لا تنسي بعد اليوم ... انتماءك ... وتخرجني مع شاب من غير (ملك) ... وركضت في دروب الليل صارخة : لكنني انتمي للحب وللحياة ... هذا محفور في قاع عظامي من الداخل ، لا فوق جلدي من الخارج ..

* * *

كابوس ٢٧

الباب يقرع ..

جارنا العجوز يسألني : هل عاد أخوك ؟ ..

— أخي ؟ ولكنه نزل اليكم !

قال بصوت حزين جداً : جاء الينا . لم تكن قد تزودنا بأية مؤونة ، فقرر الذهاب لاجتماع نجلدة غذائية .. قال اننا سنموت جوعاً فيما لو استمرت المعارك يومين آخرين ! .. صرخت : الذهاب ؟ ولكن كيف ؟ من أية طريق ؟ ألا ترى انهم اطلقوا الرصاص حتى على الكلب الذي تجرأ وعبر الشارع ؟

قال : لقد تسلل من الحديقة الخلفية حيث دكان بائع الحيوانات الأليفة ... انه شارع خلفي وضيق ، وفي مأمن نسبي عن العيون ...

صرخت : وكيف تركتموه يذهب ؟ انه غير مسلح .. قال العم فؤاد بأسى : لقد
أصر على الذهاب وحمل معه مسدسي .

— ولكن مسدسك اثري ... مسدسك ينتمي إلى عصور الحرب العالمية وأيام
(زمان) ... الدنيا تغيرت ... مسدسك أمام الأسلحة الحديثة مثل لسعة بعوضة أمام
ضربة أسد .

قال العم فؤاد بطمأنينة : ان البعوضة تدمي مقلة الأسد !
لعنت الشعر . واحترمت شيخوخته . كنت اعرف ان المناقشة معه ضرب من
العبث ، فكل منا ينتمي إلى عالم بعيد بعيد ، والهوة شاسعة ...
ووجدتني اتساءل : ترى هل ذهب أخي حقاً لإحضار الطعام في عملية بطولية ،
أم انه مثلي نحائف حتى الموت ، وقد فقد أعصابه وانتهاز الفرصة للهرب دون ان يحمل
مسؤولية (هربي) معه ؟ ...

ورجحت انه انتهاز الفرصة للهرب . ولم أله . بل حسدته على شجاعته !! ... في
مثل هذا الجحيم ، ربما كانت البطولة الوحيدة الممكنة للعزل امثالي هي أولاً : الهرب ! ...
والبقاء أحياء ... أحياء .. أحياء ...

* * *

كابوس ٢٨

اقرب الغروب ، ولم يعد أخي ..
وانا اقرأ كوماً من الصحف القديمة وجدتها مكومة في زاوية المطبخ ... صحف
عمرها شهران وثلاثة .. كلها تتحدث عن الموت والقتل والجثث والخطف وحربنا
الاهلية المريرة ... كلها كوايبس كوايبس ..
تنفتح أمامي دنيا من الرعب ... كأنني أخطو داخل سراديب الماضي .. كأنني
أعيش أهوال الشهور الماضية دفعة واحدة ...
اقرأ وقرأ وتنبت الكوايبس داخل رأسي وتفرخ بوحشية نباتات ملعونة تتغذى
بالدم ... تنمو كوايبس من الهول ..

للصحف العتيقة مذاق غريب ، كأنها تروي حكاية كل رصاصة اسمعها منذ
البداية ... كأن كل كوايبس المدينة تعاود انزلاقها فوق صدري كحجر القبر ... كأنها

الحكواتي العتيق في مقهى مقفر ، وانا المستمع الوحيد ، وحكاية عنتر بن شداد والوزير ،
ويوسف والبئر تحولت إلى حكاية لا حد لها ...
ويوسف ... ها هي صورة جثته وشرح الصورة يقول ان حازراً مسلحاً قتله ...
هكذا ببساطة ودونما معنى .. موته موتان في قلبي ، مرة لانه مات ، ومرة لانه مات
دونما معنى ...

* * *

كابوس ٢٩

انه الليل ، ولم يعد أخى .
الفراش ليس فراشي . الغرفة ليست غرفتي . صرير باب الخزانة ليس مألوفاً لدي .
لا اعرف كيف أعالج مزلاج النافذة الحديدية . الأثاث البني الكثيب ليس أثاثي والجدران
ليست جدرانتي . لكنني سأنام الليلة في هذه الغرفة ، وسأبدأ صفحة جديدة في دفتر
تشردي ...
لقد اصبر جارنا العجوز العم فؤاد على ان أنام في بيتهم بالطابق الأرضي . قال ان
بيتنا في الطابق الثالث أكثر تعرضاً للصواريخ والخطر وانهم لن يتركوني وحيدة في
بيت الرعب ..
هبطت اليهم . بيتهم حزين حزين . ككل البيوت التي يقطنها « الذكور » وحيدين ،
حيث لا لمسة حنان انثوية تدفئ الأشياء . منذ ثلاثة أعوام توفيت ابنته الصبية وهي
تضع طفلها الأول ، وبعدها بأيام توفيت امها (اي زوجته) ومن يومها لم يعد البستاني
العجوز يهتم بزراعة البنفسج واليانسيه (المهرجانية) في الحديقة ... ومن يومها ذبل الاب
الكبير ولم تعد ضحكته تضحك ... واكتفى بالحياة في شبه عزلة مع خادمه السوداني ،
وابنه امين الشاب الوحيد ، والأعزب المزمع ...
ها انا من جديد اعلق ثيابي فوق (شماعة) لا تخصني .. اغسل وجهي في حمام لا
اعرف بالضبط كيف افتح حنفيته ، وكم علي ان أديرها بحيث لا تنفجر أكثر مما
يجب أو أقل مما يجب .. استعمل صابوناً ليس مألوفاً لدي ... امسح وجهي في منشفة
أراها للمرة الأولى واكره رائحتها ... اتعمد في سرير لا أدري من نام به للمرة الأخيرة ...
احلق في شقوق السقف ، المختلفة عن تلك التي ألفتها في بيتي ... كل هذه التفاصيل

الصغيرة هي برقيات خافتة من مملكة الغربة التي أخطروا إليها ثانية ... انه التشرذ من جديد ...

وغمرني غم لا حدود له ... ربما كان لون الاثاث البني العتيق المشبع بالكآبة ، وربما لانني شاهدت زوجة العم فؤاد تحتضر في هذه الغرفة وتموت على السرير ذاته ... كان رأسها في موضع رأسي تماماً ، ربما على الوسادة ذاتها ... وكان جسدها ممدداً في موضع جسدي ، وكانت أطول مني قليلاً لكن الموت جعل جسدها يتقلص ولعل موضع قدميها كان تماماً حيث اضع قدمي ... السرير باق ، وجثة تحل مكان جثة لتحل مكانها جثة أخرى ... والسرير يزداد كآبة . السرير يصير تابوتاً فور خروجه من المصنع واستعماله من قبل انسان ما لاول مرة ، ما دام كل منا مشروع جثة مكتملة ، ما دام كل انسان حي يحمل موته معه ! .. لماذا السرير ؟ لماذا لا ننام في توابيتنا منذ الولادة ، دونما لف او دوران او احتيال على بدهيات الحقيقة ؟ ... وشعرت بان الموت هو أمي الوحيدة والأولى والاخيرة ، وان أصوات الرصاص هي انشودنها وهي تهدئني للنوم ... وبدأ شيء في داخلي يتزلق مني بعيداً ... بعيداً ... خلفاً جسدي وحيداً ومكوماً على السرير ، وادركت انني ميتة مع وقف التنفيذ ..

* * *
كابوس ٣٠

آه اين انا ...

آه ماذا حدث ؟ ...

ابقظني انفجار رهيب ... صرخت .. سمعت صوتي وانا اصرخ حتى قبل ان استيقظ تماماً .. أخافتني صرختي أكثر من صوت الانفجار ... دفعة واحدة ، وبعيت معنى ما يدور ...

كان انفجاراً شبيهاً بصوت الرعد تماماً ... ربما مدافع ميدان ١٦٠ ام تراها الكاتيوشا ام صواريخ غراد ؟ مدافع الهاون ١٢٠ او الهاون ٨٢ - يا للحسرة ... كانت أذني تعشق الموسيقى وتميز الطابع الخاص لكل عابرة الكلاسيكيين وتعرف اسلوبهم بعد دقيقة من الانصات ... في كابوس بيروت ، الموسيقى رصاص ومتفجرات وها هي أذني تحفظ جدول نوبات أصوات الأسلحة ... بل انني اعرف من صوت الطلقات اي

الفريقين يطلق على الآخر واي الفريقين يملك هذا السلاح او لا يملكه ... لقد تخرجت من مدرسة « الحرب الاهلية » ، واعرف ان رعد البشر المدعو مدفع ١٦٠ يشبه رعد الالهة ، وان تلك الطلقة التي تشبه زعيق الغراب (الشوكة) هي طلقة بندقية فال وكال البلجيكية ، او إم ١٦ الاميركية ... اما تلك الطلقات المتدفقة كالطرر فهي قادمة من رشاشات ٥٠٠ الاوتوماتيكية الحديثة ، وإن كنت حين اسمعها اذكر أفلام الكاوبوي التي شاهدتها في طفولتي وانجيل المقاتل يُدير دولاباً خشبياً ومع كل دورة تنطلق عشرات الطلقات ..

كانت الطلقات مستمرة دونما رحمة .. وكنت أحصيها كي لا أجن ، كما يحصي المرفهون الأغنام حين يعانون من الأرق ... كان النعاس يقتلني والنوم على مرمى رصاصة .. وهذه ليلتي الثالثة بلا نوم ..

بعد الطلقة الواحدة والعشرين ساد سكون عميق ... اية مصادفة .. هذه المدفعية ، كأنما تطلق قذائفها حداداً على عظيم مات من الذي مات الليلة ؟ .. ما اسمه ؟ ... اية كوارث سرية تدور في هذا الليل الشاسع الاحزان والغموض .. لم أنهض من سريري ولم ينهض أحد في البيت . لم يضأ اي نور. لم يقرع بابي مخلوق. ربما كانوا مثلي ، أكثر خوفاً من القدرة على مجرد الوقوف أو الحركة ...

بقيت وحدي في الظلام الدامس ارتجف . لم اعتب لان أخي مضى وتركني وحيدة . منذ مراقبتي وانا أعمل واعيل نفسي وامارس حياتي كأني (شاب) في الأسرة .. وانا الآن خائفة كما قد يخاف اي شاب أعزل في ليل الجنون ... الخوف (انساني) لا (انثوي) ... ومع ذلك لا استطيع ان اتجاهل صورة حبيبي يوسف ، وصلره الشاسع الذي اقتحم وحشني ... تمنيت باخلاص لو يضمني اليه واضمه إليّ ... لم اكن اريد ان اخبئ في صدره ... كنت أريد ان يحتمي أحدنا بالآخر مثل دفتي نافذة تنغلقتان معاً في وجه العاصفة ... لم أكن أحلم بان يغمرني علي مثلاً بين ذراعيه ... لكن الليل سيكون أقل ظلمة وصوت القنابل أقل هديرأ بالنسبة له ولي لو كانت يدانا متعاقبتين ... وحتى في الزلزال تلتصق الوحوش بعضها ببعض .. الموت الجماعي ليس مرعباً كالموت الفردي ... الذي يموت وحيداً يموت مرتين : مرة لانه وحيد ، واخرى لانه ... مات ! ...

كابوس ٣١

رغم ان القنابل توقفت .. والرصاص ... وعاد السكون الشامل ينجم على كل شيء .
فقد عجزت عن العودة إلى النوم .

بدأ الصمت يخيفني أكثر من الانفجار ... في الصمت اسمع صوت قلبي .. في
الصمت اسمع عضواً ما غير مرئي في جسدي يتزفد باستمرار ، وعلى البلاط البارد
تسيل قطرات الدم نقطة نقطة في الظلام ... نقطة نقطة ... (ام تراه صوت حنفية الماء
غير المغلقة جيداً في الحمام الملاصق لغرفتي ؟) .. في الصمت اسمع صوت كائنات
دكان بائع الحيوانات الأليفة .. وقد بدأت تجوع . وتعطش . وتموت شوقاً للشمس .
وينفذ أملها وصبرها ، اسمع بعضها يضرب رأسه بجدران القفص احتجاجاً وبعضها
الآخر يجلس بهدوء منتظراً تطور الأمور . البعض يصلي . والآخر يحلم أو يكفر أو
يحاول الهرب أو يلقي بالخطب والمواعظ .. تماماً كالشعر ... تماماً مثلنا نحن سكان هذا
الحي الأليف ..

كان صمتاً طويلاً حزيناً ... ثم عاد صوت الرصاص شيئاً فشيئاً ... كان قريباً
جداً وحذت ان معركة ما تجري في الشارع امام بيتنا .. وفجأة انطلق بوق سيارة ما ...
بدأ الصوت غريباً وطريقاً وسط صوت الرصاص .. بدا انسانياً مثل رجل يعول
وقد اصابته رصاصة .. في الظلمة والرصاص وعمرة الانفجارات استأنست بهذا الصوت ..
وحزنت أيضاً ... خمس دقائق وبوق السيارة يعول بأعلى صوته ثم بدأ الصوت يخفت
تدريجياً تدريجياً كأنسان يختصر مشرفاً على الموت النهائي .. ولعل الصوت ضايق احد
المساحين فقد انطلقت زخات شديدة من الرصاص وسكتت السيارة بعدها تماماً . ماتت
تماماً .

افتقدت صوت بوق السيارة .. افتقدت الحياة .. زحام السير ... زعيق الأبواق
على طريق الجبل . ويوسف إلى جانبي ... نضحك .. ونشعر بالشعاع كلساً رأينا سيارة
(رسمية) وقد انقلبت على جانب الطريق وقد اصابها حادث ما ..
ووجدتني اغني بصوت خافت :

جاءك الغيث اذا الغيث هما يا زمان الوصل بالاندلس
وكانت صورته تملأ عيني ... والدموع أيضاً ... وفكرت بهلع . تراني بدأت أجن ؟

وهل هذه اغنية ام شهقة احتضار ؟ ...

* * *

كابوس ٣٢

حين استيقظت غمرني الملح ...

كانت الغرفة غريبة ومألوفة في آن واحد .. ثم تذكرت كل شيء ... ظلمت وقتاً طويلاً ممددة كما أنا ، ارقب انزلاق البقعة المضيئة القادمة من ثقب بالنافذة التي اخترقتها رصاصه ما ... (هل يمكن ان تكون هذه هي الحقيقة بكل بساطة ؟ والنور لن يدخل إلا إذا خرقنا جدران سجوننا بالرصاص والمتفجرات ؟) .. انسللت من فراشي . كان البرد شديداً .. كان البرد ينسكب من كل قطع الأثاث غير الليفة المحيطة بي ... غمرني بؤس عميق ... كم وكما ارتديت ثيابي في غرف غريبة باردة في بلاد نائية ، غرفة لكل يوم ، ووجبة من الكأبة والوحشة لكل صباح ...

خرجت إلى الردهة ... كان من الواضح ان العم فؤاد قد استيقظ منذ زمن طويل . لا يبدو عليه انه لم ينام في الليلة السابقة .. حسدته على سماعه غير الهوي ... الطرشان وحدهم قادرون على معايشة كوابيس بيروت بعد ان تخلصوا من احدي حواسهم .. فحين تصير الحياة كابوساً ، تصير الحواس أدوات للتعذيب ..

كان يقف امام النافذة ، وحياتي برقة منقرضة .. في الخارج كانت نبتة ياسمين كثيفة تلتصق في ضوء الشمس التي لم تشرق بعد (ام تراه سيكون يوماً غائماً ؟) ... لم يكن بيننا من يحرّو على الخروج إلى الحديقة حتى للاستفسار عن صحة الشمس ... وتمنيت لو ادفن وجهي في الياسمين واغمض عيني لأطير إلى ليل الحنان ... ليل يوسف .. (يا ميت مسا ، حيي المضي ، ما بيتسى يا ميت مسا) وبدأت اترنم بها بصوت جنائزي .. لا ادري لماذا صار لكل اغاني الماضي طعم الرماد والدموع في فمي ، منذ مصرع يوسف .

قال لي العم فؤاد انه سيخرج ويقطف لي ياسمينه ، وتوسلت اليه ان لا يفعل حرصاً على حياته وحياتها . فبدل رأيه فوراً وبدأ سعيداً لانني لم اتركه يدفع حياته ثمناً لتزوته الطيبة هذه ... او يضطر للتراجع كطفل مذعور ..

صار لمس الياسمين أمانة ، والوقوف تحت السماء طموحاً ... استيقظ امين أيضاً ووقف إلى جانب ابيه . باننا لي لوحة للخوف والبؤس . تبدو وكأنها ابة العالم حين لا

يحلق الرجال ذقونهم .. توصلت اليهما أن يفعلوا ! ..

* * *

كابوس ٣٣

اصعد الدرج إلى بيتي في الطابق الثالث . للمرة الأولى ألحظ ان نوافذ الدرج كثيرة وكبيرة وكل من يمر امامها هو هدف جيد لقناص في اي بناء من الأبنية الحديثة الاسمنتية المحيطة ببيتنا البيروتي العتيق المبني من الحجر الرملي (كأكثر بيوت بيروت القديمة) .. وكنت كلما مررت بنافذة ، اخفض رأسي لا شعورياً ، رغم معرفتي المستجدة بان رصاص الاسلحة الحديثة لا يؤمن بان الخط المستقيم هو أقصر الطرق إلى الهدف وانما يؤمن بأسلوب الخراذين في الركض من جدار إلى آخر ، او بأسلوب كرة البلياردو .. سمعت الهاتف يرن ... ربما كان أخي ... سارعت افتح الباب .. لاحظت ان يدي ترنجدف وانني عبثاً أدخل المفتاح في القفل . حين نجحت في فتح الباب كان الهاتف قد كف عن الرنين . حزنت حزناً عميقاً . كنت بحاجة إلى سماع صوت خارجي .. اي صوت ، عاد الهاتف يرن . ركضت ملهوفة . كانت المتحدثة فتاة تدعى سلوى وهي شقيقة زميلة لي اسمها مريم .. سلوى بنت صغيرة وحلوة وطيبة . « أمريا سلوى . ماذا تريدن . هل اختك مريم بخير ؟ » ... ردت : « أجل وقد اعطتني رقمك الهاتفي » ظننت سلوى بحاجة إلى رغيف خبز مثلي ، او نجدة عسكرية تخرجها من مأزق مماثل . بالفعل . كانت بحاجة إلى خدمة . ماذا ؟ .. قالت : ارجو منك ان تتوسط لي لدى صديقك الاستاذ صبري كي يضمني إلى فرقته للرقص الفولكلوري !! ... انني أعشق الرقص !! ...

* * *

كابوس ٣٤

كانت سلوى ما تزال تتوسل إلي كي اتوسط لها لترقص الدبكة . وكنت صامته ، مذهولة ، وعبر القمرية الزجاجية العالية كنت ارى سحباً مروعة من الدخان . لا أدري كيف استطعت ان أكون مهلدة ، ولا أصرخ بها : المدينة تحترق وانت تتحرقين لرقص الدبكة . بدلاً من ذلك سألتها بلطف : اين اختك مريم ؟ ولماذا لم تتصل بي بنفسها ؟ ردت سلوى ساخرة جداً : لأنها حملت السلاح وذهبت لتقاتل مع الميليشيا . لم أقل لها شيئاً . فقط وعدتها خيراً وودعتها على أن تتصل بي في الغد (١) وسارعت

أتلصص بخذر من النافذة كان هناك حريق يتصاعد من مبنى فندق « الهولبداي إن » المقابل لبيتنا ... بدأت أعد طبقات المبنى العملاق ، وكان لسان النار يخرج من شرفة الطابق الثامن . كان لساناً كبيراً ما لبث ان دخل إلى فم الطابق التاسع فالتعاشر ... كانت النار تستعر بسرعة لا تصدق والدخان الأسود يغطي وجه البحر والقذائف والانفجارات تتعالى والذهول يفرسني ... شيء يتحطم . انه زجاج النافذة في الغرفة المجاورة . ركضت بين غرف البيت ابحث عن غرفة بلا نوافذ ... صعقت ... اكتشفت ان ليس في البيت حتى ولا غرفة واحدة بلا نوافذ ... للمرة الأولى ألحظ ان واجهة بيتنا بأكملها من الزجاج . ونصفه من الزجاج الملون على الطراز القديم . الزجاج الملون قد يعني مناخاً يزنظياً روحياً ساحراً في أيام السلم . أما في الحرب فالزجاج مرشح لان يصير قطعاً من الخناجر المتطايرة في كل الاتجاهات في حال حدوث انفجار ... لاحظت أيضاً ان نوافذ البيت كبيرة وشاسعة .. الرجل الذي بنى هذا البيت لم يكن يفكر بالحرب . كان يفكر بالحب والسلام والأفق . وكان حريصاً على ان يطل البحر من كل نافذة حتى من نوافذ الحمام ... الدهليز فقط كان بلا نوافذ ولكن ما الفائدة من استعماله كملجأ . وثلاثة أبواب تنفتح عليه ؟ . وكانت الانفجارات ما تزال تزلزل البيت واصوات تكسر الزجاج في الحي تسمع بوضوح بين دوي وآخر ..

ووجدتني اجلس على الأرض وحيدة في الدهليز ... ثم نهضت . انضرت كرسياً وجلست عليه . ووضعت أمامي علبة سجائر وكبريت . واستسلمت لحنون المتفجرات ... كنت اعني جيداً انني ربما للمرة الثالثة أقف على الخط الدقيق الفاصل بين الموت والحياة . وغمرني صفاء عجيب . وفي ذلك الدهليز الضيق كانت انفجارات متلاحقة تضيء اعمالي ..

° ° °

كابوس ٣٥

كانت أبواب مغلقة في داخلي تنفتح باباً تلو الآخر ... ووجدتني أحرق في الأشياء فأرى إلى أبعد منها ...

في المشي أمامي على طول الجدار مكتبة تمتد من الأرض إلى السقف ... ليس المشي آمناً بقدر ما كنت أظن . ففي حال انفجار داخل البيت قد تنهار الكتب كلها

فوفي وتقتلني ... اما البقية الباقية من الجدار فيغطيها ملصق (بوستر) فيه صورة خضراء كثيفة الأشجار .. وكان بوسعي ان أخطو إلى داخل اللوحة . هاربة إلى الغابة الاوروبية من جحيم عالمي . وكان بوسعي ان اتسلق الاشجار وألتحف بالضباب وأنام قليلاً ... لكنني لم أفعل . لقد علمتني الحياة ان الهرب من انتمائي الحقيقي لا يجدي . انا ابنة هذه الأرض . ابنة هذه المنطقة العربية المضطربة حتى الغليان ، أنا ابنة هذه الحرب .. هذا قدرتي .. تعلقت عيوني بالرّف الذي يضم كتبي التي ألفتها و شرأت من الكتب التي ترجمتها على طول عشرة أعوام من العمل في دار النشر الثورية ووجدتني اهمس : وانا أيضاً قد شاركت في صنع هذه الحرب ... صحيح انني لم احمل سلاحاً قط . صحيح انني مذمومة كأني جرذ في دكان بائع الحيوانات الاليفة ، ولكن كانت سطورتي تحمل دائماً صرخة من أجل التبديل ... صرخة من أجل مسح البشاعة عن وجه هذا الوطن وغسله بالعدالة والفرح والحرية والمساواة ... وكل ما يفعله المقاتلون هو انهم ينفذون ذلك على طريقتهم .. انها حروفي وقد خرجت من داخل الكتب لتتمصص بشراً . يحملون السلاح ويقاتلون .. اكنت حقاً أريد ثورة بدون دم ؟ أجل ... مثل كل الفنانين أنا متناقضة ... أريد الثورة ولا أريد الدم ... أريد الطوفان ولا أريد الغرقى ..

ها قد عدت إلى معزوفة تأنيب الذات ..

— ولكن هذه مجرد كوابيس لا ثورة .

— كل الثورات تولد هكذا معمدة بالدم .. حتى ولادة طفل لا تتم إلا معمدة بالدم ...

— ولكن عدداً كبيراً من الأبرياء والعزل يموت .

— لا أحد بريء في مجتمع مجرم ...

ما زالت انفجارات القنابل تتعالى .. ما زلت جالسة في الدهليز احتمي بجدران شبيهة المتلاصقة كرحم حجري . لم أعد مذمومة كجرذ . الكتب تحرق بي من رفوفها . وأنا احرق بالكتب ، ولا أحد يملك للآخر شيئاً . الكتب اغلفة فارغة والكلمات هربت من الصفحات لتصير رجالاً مقاتلين . اتناول كتاباً من تلك التي ترجمتها . افتحه . أجده كما حدثت ، صفحات بيضاء . ان الحروف خرجت إلى الشوارع لتمارس حياتها الخاصة . صارت مقاتلين يحولون الأفكار إلى سلوك .. ما الذي يخيفني ؟

ما زالت انفجارات مضبئة تتلاحق في اعماقي وأبواب مغلفة في روعي تنفتح باباً

تلو الآخر ... ما زالت الأصوات تتعالى في داخلي ، وتتابع نقاشها داخل ذلك الصندوق الصغير المقفل جيداً المدعو دماغي ... تتلاحق الصرخات ويخيل إلي ان جدران الدهليز ورفوف المكتبة تردد اصداها ..

— ولكن عدداً كبيراً من الأبرياء والعزل يموت ...

— لا أحد بريء في مجتمع مجرم .

— والواقفون على الحياد ؟

— لا حياد في مجتمع بلا عدالة ... لا حياد في مدينة العري والقيزون . مدينة الجوع والتخمة ... للمحايين هم المجرمون الأوائل ... الأكثرية الصامتة هي الأكثرية المجرمة ، انها ترى الظلم وتعانيه ، لكنها تؤثر السلامة الرخيصة على الكفاح الخطر النبيل ...

— بعض الناس غير مؤهلين نفسياً لرؤية الدم .

— حينما يحدقون جيداً في جرحهم الداخلي ودمهم النازف ، لا بد وان يتعلموا

رؤية عدوهم يتزف تحت ضرباتهم هم ...

— من ضربك على خدك الايمن أدر له الخد الايسر ...

— بل العين بالعين والسن بالسن والباديء أظلم ..

— ولكن ، ما ذنب الأكثرية الصامتة الآمنة المسألة ...

— ذنبها الصمت والمسألة والعيش في وهم الامن ... كل عملية حياذ هي مشاركة

في عملية قتل يقوم بها ظالم ما ضد مظلوم ما ... الأكثرية الصامتة هي الأكثرية المجرمة ...

انها تشكل إغراء لا يقاوم لممارسة الظلم عليها .. انها هي التي تثير غريزة الشر في نفوس

الذئاب البشرية ... المسألة هي تحريض على القتل ، وتلك جريمة . المسألة هي شروع في

الانتحار ، وتلك أيضاً جريمة .

— ولكنني لم أكن على الحياد . انني منحازة لطرف ضد آخر . انني منحازة للشمس

والعدالة والحرية والفرح والمساواة .. وقد قضيت عمري أخدم هذه القضايا بالسلاح

الوحيد الذي اتقن استعماله ..

— كان عليك ان تتقني استعمال اسلحة أخرى من أجل يوم كهذا ...

— ولكن قلماً جيداً خير من رصاصة طائشة ...

— ولكن ما جدوى القلم في دوامة النار الآن ؟ ...

— انتظر ريثما يصمت الرصاص فيعود للقلم صوته ..
— تعين ان تجلسي في هذا المشى المعتم كالجردان . وحينما تنتهي الحرب تتابعين دورك السخيف : التصفيق أو التصفير من خلف طاولة مكتبك ... وحينما يدوي الانفجار تنزلين للاختباء تحت الطاولة ...

— ولكن ما جدوى ان يقتل الأدياء في الحرب ما دامت طبيعة أكثرهم لا تؤهلهم ليكونوا مقاتلين جيدين ؟ بأيرون كان شاعراً عظيماً ومقاتلاً فاشلاً . وقد مات في الحرب الأهلية باليونان بعد ان كبد (فريقه) لا الفريق العدو خسائر كثيرة ... لو عاش وكتب من أجل المثل التي يؤمن بها لأفاد واستفاد بدلاً من ان يتعفن بعد ساعة من موته وتنطفئ يده التي هي مصباحه . من واجب الفنان ان يبقى على قيد الحياة كي يستمر في أداء رسالته : الكتابة ! .

— ولماذا تتمسكين بهذا المثال ؟ ماذا عن غيره من الفنانين المقاتلين ؟
— همغواي كان مقاتلاً سيئاً أيضاً . لقد استفاد أده من تجربة المعركة ، اما (فريقه) فلا بد وانه دفع الثمن باهظاً من سوء استعماله للسلاح ولقنون القتال ... ولعل المرة الوحيدة التي أجاد فيها همغواي استعمال سلاحه كانت لحظة انتحاره !
— ستجدين الآن عشرات الأمثلة لتبرير نقورك القطري من مشهد الدم ، ومن العنف الجسدي ..

— لا أريد ان أسقط فريسة شعور بالذنب لانني لا أقاتل ... أعرف عشرات من المثقفين الفرنسيين الذين داهمهم هذا الشعور أيام الحرب الأهلية في اسبانيا وتطوعوا للقتال وكانت النتيجة انهم كانوا عبثاً على الثوار ، واحداً من (كانت شاعرة كبيرة) لم تكن تصلح في ميدان الحرب حتى لطبخ الطعام للجنود ... ان جر الفنان إلى القتال هو كجر ماري كوري من مختبرها إلى المطبخ بحجة ان البلاد تعاني نقصاً في الطباخين ! ..
— اذن ترين ان مهمة الفنان هي ان يصب البتزين ويشعل النار ثم ينسحب من المدينة هارباً ؟

— تقريباً ! ... هذا صحيح على نحو ما ... مهمته ان يخلق الثورة لا ان يمارسها ...
لقد أعلن الرئيس جمال عبد الناصر ان كتاب « عودة الروح » لتوفيق الحكيم كان من العوامل الهامة التي ساهمت في تفجير ثورته والقباط الأحرار ، واشعال شرارتها ...

الفنان شرارة الثورة ونبوءتها ...

— ووقودها ! ..

— ان موته كجرذ لا يفيد أحداً ... ولكن ما يحدث عادة هو ان الفنان نوع فريد من الثوار ... انه يصنع الثورات ويجد نفسه بطريقة ما وقوداً لها لا محالة ... انه يشعلها وهو يعرف انه أول من سيحترق بنارها ... وحتى اذا لم يقتل الفنان أثناء الثورة فانه سيفقد ادوات عمله : مكتبته ومراجعته وكتبه وارشيفه وسلامه النفسي الداخلي النسي الذي سيمزقه تماماً التشرد الجسدي ، هذا بالإضافة إلى تشرده الروحي المستمر ...

— ولماذا لا يقاتل الفنان حين تشب الحرب كأبي فرد آخر في المجتمع ؟ هنالك مقاتلون جيّدون ومقاتلون سيئون ، فلماذا لا يكون مقاتلاً سيئاً ؟ ان ذلك سيحميه على الأقل من الموت وحيداً ... ومن عذاب الأسموات المتناقضة في داخله ..

— لان تركيبة الفنان النفسية التي تجعل منه فناناً جيداً هي نفسها التي تحول بينه وبين ان يكون مقاتلاً جيداً ! ... لا يستطيع ان يقتل اي انسان او اعذبه ... سأفكر بأنه كان ذات يوم طفلاً بريئاً . سأفكر بأنه لم يصنع من نفسه الوحش الذي هو أمامي وانما هي عوامل كثيرة خارجة عن ارادته ساهمت في صنع ذلك الوجد امامي .. سأفكر أيضاً بأمه .. بحبيبتها .. سأعجز عن تعذيبه .. سأتذكر كيف قد يبدو وجهه وهو يضحك . وهو يصلي ، وهو يمارس الحب ... سأحس بانه كوكب قائم بذاته ، وان قتله مجزرة كونية ...

أصوات ... أصوات ... أصوات ... تنفجر داخل رأسي وتتناقض بصوت عال ، ومع كل صوت أشعر بأن امرأة جديدة خرجت من داخلي ، ولم اعد امرأة واحدة في الدهليز ، بل تناسلت وتكاثرت وازدحم بنا الدهليز ، ودوى انفجار رهيب وكنت واثقة انه داخل بيتي في مكان ما . وعدت امرأة واحدة ، وحيدة في الدهليز على الخط الفاصل بين الموت والحياة ، أواجه مكتبي الكبيرة ، والمخ عبارة « الثورة » في أكثر عناوينها .. وصرخ صوت في داخلي : هذا كابوس لا ثورة ... هذه « كوايس سادية » لا « حرب تحريرية » ...

ورد صوت آخر : كل الثورات في التاريخ كانت تبدو من الداخل هكذا ... المهم في الثورة هو الجيل الذي سيحصدها ... لا بد لكل ثورة من جيل ضحية ...

سمعت جيداً صوت سقوط جدار ما ... اخمد الانفجار الأصوات في رأسي ...
 ركضت ... للوهلة الأولى ، بدا لي أن دخاناً كثيفاً يتصاعد من غرفة جدتي .. لم أكن
 أدري انني استطيع ان أكون شجاعة ... دونما وعي حملت (طفاية الحريق) الصغيرة
 وسارعت إلى الغرفة ... كان السقف محفوراً والجدار المقابل للنافذة ... في البداية ظننت
 قذيفة ما سقطت على السطح ، وركضت نحو المطبخ اتسلق السلم الخشبي إلى السطح
 ففوجئت بأن القرميد الذي يغطي سقف بيتنا سليم ولا ثقب فيه ... عدت إلى الغرفة .
 كانت سحب الغبار قد استقرت على الأرض والأثاث ، وحين حدثت جيداً اكتشفت
 ان شيئاً ما قد اخترق زجاج النافذة وثقبه دون ان يكسره مصطدماً بالسقف ومرتداً إلى
 الجدار وأن ما توهمته دخاناً كان مجرد غبار تساقط من السقف والجدار المشروخين ...
 وبحشت على الأرض فوجدت ثلاث قطع معدنية ما تزال ساخنة ، واحدة منها مدببة .
 وكانت بصورة عامة صغيرة واذهلني أنها قادرة على إحداث هذا الحراب كله ...
 حيثذ فقط لاحظت ان ركبتي ترتجفان كأنهما انفصلتا تماماً عن جسدي ورغباني .
 وركعت على الأرض ودفنت وجهي بين يدي وبدأت أبكي ..

• • • كابوس ٣٦

أكره صوتي حين أبكي ...
 يبدأ دماغي بالعمل فوراً ضد ضعفي وبملاحقة عناصر جسدي التمردة . قررت :
 اعصابي متعبة لانني لم آكل شيئاً .
 دخلت إلى المطبخ . اشعلت نار الغاز وكانت يدي ترتجف حتى انني احترقت أحد
 اظافري ... لقد اشتعل بسرعة عجيبة وفاحت رائحة خاصة . لم اشعر بأي ألم لكنني
 غرقت في ذعر مروع .. كم الجسد البشري قابل للالتهاب بسهولة ! وحينما كسرت
 البيض في المقلاة أذهلني ان بياضها كان وردياً وأن صفارها كان من الدم ... لم تكن
 حواسي تخدعني . كانت البيض ملينة بالدم ... قد تكون للأمر تفسيرات علمية لكنني
 واثقة من انه حتى الدجاج في مدينتنا لم يعد يبيض من الرعب . صار يتزف !
 صار البيض قطعاً من الدم المخثر ...
 ومع ذلك أكلت . وابتلعت فطوري الدامي دون تذمر . كانت إرادتي قد امسكت

بمراسي من جديد . وكنت اعرف معنى ارادتي .

(كنت في الرابعة عشرة من عمري حين امسكت بالابرة وييد لا ترتجف ثقبت شحمة اذني . اليمنى أولاً . ثم اليسرى . شعرت بألم خارق . لكن يدي لم ترتجف . ولم اتردد في ثقب اليسرى بعدها بثوان ، حتى قبل ان تهدأ ضربات قلبي واندفاع الدم إلى رأسي لشدة الألم . كنت قد وضعت الابرة بالنار وعقمتها . ولم اربط في ثقب اذني خيطاً ريشاً يلتصق الجرح ، بل عقت القرطين الذهبيين الصغيرين ونحلت بهما فوراً . تأملت أياماً ثم شفي الجرح . ومن يومها تعلمت تلك القوة الجبارة في أعماق كل انسان المسماة الارادة ... ربما كانت مأساتي أنني طالما استعملت ارادتي ضد رغبات قلبي حتى صار العداء بينهما مستحكماً ! ...) ...

* * *

كابوس ٣٧

بعد وجبة الدم المخثر ، قررت (ارادتي) ان عليّ ان أتابع حياتي (العادية) كي لا أصاب بالانهيار والجنون ... العمل أولاً . كتبت مذكراتي ، ثم تذكرت ان اليوم هو الاثنين وعلي ان اكتب (عمودي) الاسبوعي للمجلة التي اعمل بها . كان الرصاص مستمراً ، ولكنني حين امسكت بالقلم وجلست على الأرض بالقرب من طاولتي « اي تحت الطاولة » لآكتب ، ازداد اطلاق الرصاص شراسة وضراوة .. كأن المعركة تدور بين قلبي والرصاص .. كأن كلاهما يتحدى الآخر ... كأنهما مصارعان في إحدى حلبات روما القديمة .. ربما كنا ، هم وانا نعمل لهدف واحد في وقت واحد .. انا اكتب ، وهم يطلقون الرصاص ، لاجل هدف واحد .. ربما كان كلانا يحارب على طريقته ولكن للأسباب ذاتها .. ومع ذلك احسست بأن القلم والرصاص هما في أفضل الحالات كالأخوة الأعداء ... كان من الصعب ان يركض قلبي براحة بينما الرصاص يندق مساميره داخل جمجمتي .. ولكنني صرت اكتب واكتب ، واشعر بأن الكتابة تحيطني كدرع ، وتصفخني ، وتجعلني قوية مثل صخرة عتيقة تواجه العاصفة ، وبعد قليل لم أعد اسمع صوت الرصاص وإنما فقط صوت قلبي وضميري وصرخة اعماقي على الورق البريء . وكنت اكتب بحرقة عن حكمانا الذين يحاولون مداواة السرطان بحبة اسبرو .. عن تلك الطبقة الفاسدة التي تظن الوطن حقيرة تستطيع ان تحمل فيها ثروتها

وتهرب ... ولم أعد احس بشيء ، غير انني اكتب ... واكتب .. واكتب ... انتهيت من الكتابة وكان ألم حاد قد بدأ يحترق رأسي ... كان التركيز مهمة مروعة وسط حرب الشوارع التي لا بد انها تدور حول بيبي .. ووجدتني انفجر ضاحكة ... لقد كتبت مقالي ولكن كيف أوصله إلى المطبعة ، وانا عاجزة حتى عن فتح نافذة ؟ ..

تذكرت الأساطير ... سأربط المقال بشعري الطويل وادليه من النافذة ، وسيأتي فارس على حصان لا يحترقه الرصاص ، وسيستلق جدائي حتى نأفقتي ، ليسألني اذا كنت بحاجة إلى شيء ثم سيعاود هبوطه على جدائي ليفك المقال ويطيء به إلى المطبعة ... ووجدتني أضحك . الحصان الذي لا يحترقه الرصاص في عصرنا هو المصفحة ، ولكن مصفحات هذا الوطن الحزين لا تستطيع ان تتولى مهمة ساعي البريد ... والتاكسي معاً ! .. وتذكرت طاقة الاختفاء ...

لعل الذي اخترع فكرتها لم يكن يفكر بظروف كاتبة في حرب أهلية .. كانت ، دونما شك أغراض أخرى .. ولكن ، لو كنت املك « طاقة الاختفاء » لارتديتها ولخرجت دون ان يقوى اي قناص على إيذائي أياً كان المنظار الذي يستعمله .. ولكن .. من يدري ؟ لعلهم اخترعوا فيما اخترعوا مناظير بأشعة أكس تنبسط حتى لايسي « قبعات الاختفاء » .. وذهبت إلى غرفة نومي ... وبدأت أجرب امام المرأة قبعاتي واحدة تلو الأخرى ، وكلما ارتديت قبعة توقعت ان تكون هي المنشودة وان تخفي صورتي عن المرأة ... ولم يحدث ذلك .. اذن لا املك طاقة الاختفاء ! ..

وتذكرت أيضاً حكايا الساحرات اللواتي يتحولن إلى خرفان او قطط سود . لو كان بوسعي ان انحول إلى كائن آخر ، إلى اي مخلوق من مخلوقات الطبيعة إلا صورتي الآدمية لنجوت .. ولكنني تذكرت ان القناص عدو الحياة بكل صورها ... الم يطلق النار البارحة على الكلب المسكين ؟ ترى هل كان ذلك الكلب آدمياً سجيناً مثلي حول نفسه وبديل صورته متقمصاً جسداً آخر ، ومع ذلك لم ينجح سحره من القناص الرهيب ؟ .. تخيلت رأس القناص ، له عين واحدة فقط في منتصف جبينه مثل غيلان الأساطير وله جسد انسان آلي مثل غيلان العصور الحديثة ! ! .. كيف اوصل مقالي ؟ ..

ورن جرس الهاتف . وكان يحمل إلي الجواب عبر صوت الصديقة بلقيس .

* * *

كابوس ٣٨

كأني سجين زندا ... كأني الكونت دي مونت كريستو وهو يقرع على جدار سجنه ليفهم جاره السجين صرخته ... كأني كل أولئك الذين صار تواصلهم مع العالم الخارجي يحتاج إلى مجهود خارق ومبتكر ... كأني فراشة سجيئة في شرنقة من نار ..

وأنا أملي مقالي الأسبوعي على الصديقة بلقيس كانت اسلاك الهاتف التي تصلنا هي جدران سجن الكونت دي مونت كريستو ... لكنه كان يقرع الجدار في دنيا من الصمت .. أما أنا فكان علي ان أصرخ بأعلى صوتي كي تسمع بلقيس ما اقوله وتنقله على ورقة أمامها بخطها (الهيروغليفي) الشهير ... كان صوت الرصاص عالياً جداً ... كانت معركة ما تجري دونما ريب في الشارع تحت النافذة . كأن الرصاص يريد ان يقطع اسلاك الهاتف واسلاك التعاطف والمشاركة ..

حين كتبت ذلك المقال لم أكن قد قطعت الأمل نهائياً من إمكانية إيصاله إلى المطبعة .. اما الآن . وانا أمليه عليها لتتولى إيصاله عني . فقد لاحظت انه سيكون علينا بعد اليوم ان نختصر .. ان نكتب البرقيات لا الملاحظات .. طوال خمس واربعين دقيقة ظلت بلقيس تكتب . كنا نضحك أحياناً بمرارة حين يعلو الرصاص إلى حد يجعل حتى قرع الجدران والأسلاك وسيلة مستحيلة ... انتهت المخابرة .

تخيلت بلقيس حمامة بيضاء زاجلة ، تطير في سماء بيروت الملوثة بجنون الدمار : تطير إلى المطبعة حاملة رسالي ... صليت من أجل اجنحتها البيضاء ومنقارها الذهبي ... صحيح انها تقطن في حي أكثر أماناً (نسبياً) . لكن مجرد الخروج إلى الشارع في بيروت مغامرة . بعد ان صارت (الأحياء) تسمى ببساطة (جبهات قتال) .. ووجدتني أفكر جدياً « بالحمام الزاجل » وسيلة لنقل المقالات والرسائل والخطابات اذا دامت الحال على ما هي عليه ... وتخيلت أهل بيروت جميعاً يتخلون عن قططهم وكلابهم وهواتفهم وسياراتهم ويربون الحمام الزاجل ...

أيها المسلحون .. اذا شاهدتم حمامة بيضاء الجناحين ذهبية المنقار . خضراء العينين .

تطير ضوب مطبعة (بالزيدانية) وفي فمها رسالة ، لا تطلقوا النار عليها .. فهي صديقتي
بلقين !

* * *

كابوس ٣٩

من جديد ، عاودني ذلك الاحساس الغامض بالخطر ... بأن حضوراً حاراً قد
اخترق الغرفة .. شعرت بشيء حار يمس أذني اليمنى ثم يصطدم بالجدار خلفي بينما
يتكسر زجاج ما ... هذه الأمور تحدث بسرعة ، بسرعة مذهلة ... بعدها بقليل أدركت
ان رصاصة ما قد مرت بي جارحة طرف أذني ، مصطدمة بالجدار خلفي .
الغريب انني لم أكن أشعر بأي ألم ، فقط بشعور حار جداً في جسدي كله ...
بيقطة في كل خلية وجارحة من جوارحي ، وانتعاش فاجر ... لم أفهم المعنى
الحقيقي لما حدث إلا حينما شاهدت بضع قطرات من الدم على يدي .. كانت الرصاصة
قد اصطدمت بالجدار ، ودخلت بالضبط في شهادتي الجامعية (المبروزة) داخل إطار
فضي ومزقتها عند عبارة : « نشهد بأن ... تحمل شهادة كذا وكذا في الأدب » ...
بعد ان كسرت زجاج الاطار ..

وقفت أحدى مذهولة . كأن الرصاصة تريد ان تقول لي شيئاً . كأنها اختارت عمداً
مسح (مواصفاتي) العلمية التي اباهي بتعليقها على جداري ... كأنها دعوة لي لحمل
(شهادة) من نوع آخر قبل فوات الأوان ... الشهادة المطلوبة حالياً للبقاء هي شهادة
القدرة على القتل والإبادة ... شيء آخر أذهلني في الرصاصة هو أسلوبها في الحركة ...
تلك السرعة الخرافية التي يتم الأمر بها ... بل انني شعرت بالنار تستعر في اذني قبل ان
أعي ان رصاصة تسلت ... وقلدت ان جميع الذين يموتون مقتولين بالرصاص لا يعون
ان ذلك قد حدث لهم ، فهم يموتون بأسرع مما يعمل الدماغ لتعميم (بلاغه) عن الحادث !

* * *

كابوس ٤٠

دقائق ، ثم زاولني الحس بالدفء والانتعاش الفاجر في جسدي كله .. بدأ الجرح
يبرد ، ومع البرد يأتي الألم والهبوط ... كان جرحاً بسيطاً عابراً ، لكنه كان أيضاً
انذاراً جديداً بمدى هشاشة الجسد البشري المسكين الذي اخترعوا له أدوات التدمير

هله كلها... حزنت ، لا لاني مجروحة ، بل لاني قابلة للجرح ، ولقتل ، هكذا بكل بساطة ، ودونما اي مبرر .. لو مرت ذبابة في لحظة دخول الرصاصة مثلاً ، وأزحت رأسي بضعة سنتيمترات عنها ، لدخلت الرصاصة في منتصف جبيني ، ماسحة معها ذاكرتي ودنيا من الحب وعوالم من المخاوف والآمال تسكن ذلك الصندوق الصغير كعلبة مرددين ، المسمى دماغي !! ..

امسكت بالرصاصة ، ووضعتها إلى جانب قلبي . (ضع رصاصة إلى جانب القلم ، تجد أن القلم أكبر حجماً) .. ولكن هذه الرصاصة بالذات ، بدت لي للوهلة الاولى معادلة لطول قلبي .. ثم كبرت فصارت عموداً من نار ، في حين ارتجف قلبي أمامها ونخل ، فصار مثل ريشة طائر مجروح ... لا حيلة لها أمام عاصفة النار ...

* * *

كابوس ٤١

هذا الرصاص قليلاً ... وكما في كل فترة هدنة (تدوم عادة حوالي ربع ساعة) سمعت نداءات الرجال دون ان أفهم بالضبط ماذا يقولون .. قدرت انه يجري استبدال المقاتلين المتعبين بآخرين ... سيذهبون ليناموا وقد يتحدثون حبيباتهم اللقات على الهاتف او يمرون بهن ... أما انا فحبيبي قد مضى إلى الأبد ، والنوم لم يحتلني جيداً منذ ليال ثلاث .. هذا هو الشيء الوحيد الأساسي الذي يقلقني . من لا ينام جيداً لا يفكر ولا يتصرف جيداً ، واذا اختار ان يموت او ان يهرب فستكون غرائزه هي التي تختار ... وأكره لغرائزي ان تقرر مصيري ...

أصوات نداءات المقاتلين تونسي ... وحين تغيب بسود صمت متوتر مروع أعرف ان الانفجارات آتية بعده لا ريب فيها ... وريثما تبدأ ، ... يعلو صوت كائنات دكان بائع الحيوانات (الليفة) ... اسمعها بوضوح تصرخ في اقفاصها ، تجوع ، تخاف ، تتساءل بحيرة عما دهي صاحبها الذي طالما اعتاش من بيعها ثم هرب إلى مكان آمن حين حاق بها الخطر ... اسمع صوتها يتحد وهمهمات سجناء اعلي من الأسر (الليفة) ويصير كورساً واحداً ، مثل كورس اغريقي في مسرحية تروي حكاية مدينة ضربها طاعون الجنون ...

وشعرت برغبة عجيبة في التسلل إلى الدكان ، ومشاهدة كائناتها ... اقنعت نفسي

في البداية بالذهاب لاطعامها وإنقاذ حياتها ، ثم كان لا بد لي من الاعتراف ! لست ذاهبة لإنقاذ حياة أحد . ولا أدري أية جاذبية تشدني إليها ... ربما كان هو الفضول ، أو (وحدة المصير) التي تربطنا .. أو الحاجة إلى الاستئناس بها أنا الوحيدة الغريبة في عالم البشر – الذئاب ... ثم انها (بيت الجيران) الوحيد الذي استطيع التسلل اليه بسلام بالإضافة إلى بيت العم فؤاد ... قررت ان احمل لها شيئاً من الماء على أية حال ، والانتظار حتى يحل الظلام ..

لم أكن أدري أن (منظار) القناص المعاصر كعيون اليوم ... ترى في الظلام ! ..

* * *

كابوس ٤٢

رن الهاتف . ركضت على أمل ان يكون أخي . الصقت السماعة جيداً بأذني ، فشعرت بألم خارق في جرحي الذي كنت قد نسيت . .. وشعرت بألم أيضاً لأنه لم يكن أخي ! .. كانت صديقتي مريم ، تسأل عن أحوالي ، وتعتذر عن أحوال أختها سلوى المصرة على رقص الدبكة حتى في هذه الأيام ... قلت لها أن أختها معذورة . انها ما تزال مراهقة وطفلة . ولكن المجرمين الكبار هم المصرون على رقص الدبكة فوق جثتنا منذ نصف قرن دون ان تتبدل وجوههم .. وان تبدلت فان الأبناء يرثون (مملكة) الآباء متقمصين عقلياتهم العثمانية المتعفنة عتقاً ، وعصورهم وسلوكهم ... وهكذا لا أحد يموت غير الشعب ... لا يوجد شيء اسمه (الشعب البريء) ... شعبنا مجرم بحق نفسه حين ارتضى حمل جلاديه على اكتافه عشرات السنين ..

قالت مريم بصوت مليء بالقناعة : أما أنا فقد حملت السلاح لقاتل . ولن أعود إلى العمل الصحفي الآن . القلم عني في مواجهة ظروف كهذه . لماذا لا تنضمين إلينا ؟

* * *

كابوس ٤٣

ارى الحروف يحمل جلاده على كتفيه ، ويمضي به إلى المسلخ . يغسل السكين . يعطيها للجلاد . ينحني ويقبل قدميه . ثم يركض ويمد له عنقه كي يقطعه ! ... وحينما يمسك الجلاد بالسكين ليجز عنقه ، يتسم له الحروف ويقول له : « اتمنى ان أكون وجبة طيبة لك يا سيدي . باسم العشائرية . باسم الطائفية . باسم الجهل . باسم ما ورثته

عن أجدادي من قيود أحل لك أكل لحمي » .
أرى المحكوم بالشنق ، يسير وجلاده . تمطر . يحمل المحكوم جلاده على كتفيه
كي لا تتسخ قدماه بالوحل . أرى المحكوم ينصب مشنقه بنفسه . يقطع شجرة من
بستانه ويحول بنفسه أخشابها إلى مشقة . يدقها بمسامير انتزعها من سرير عرسه . يأتي
بالحبل من أرجوحة أطفاله . يعلق الحبل . يحيط به عنقه .. الجلاد نائم . ينتظره حتى
يستيقظ كي لا يزعجه ، ثم يقول له : « سيدنا انا جاهز للشنق . (يا بيلك انا زلمتك) ! » .

* * *

كابوس ٤٤

ما تزال مريم تعتذر عن اختها التي ترغب برقص الدبكة .
(اراهم هناك يرقصون الدبكة فوق التلة المشرفة على بيروت التي تمحرق ... مرة
كان أحدهم ما يزال يباهي بسيارته الفخمة ذات النمرة الزرقاء ، (اي انه من مجلس
النواب !) . وذهلت حين شاهدت نمرة سيارته ... كانت من الذهب الخالص !! ...
كانوا قد بعثوا بي اليه لأجراء حديث صحفي .. وكان فخوراً بفكرته الجديدة لاستعراض
(قوته الشرائية) ... فالزوجات المسخرات لعرض القوة الشرائية للازواج على
أجسادهن ، ابتداء من ارتداء معطف الفيزون وانتهاء بالخواتم الماسية ، صرن (موضحة)
قديمة . الشاليه الشتوي في الأرز ، والشاليه الصيفي على البحر ، والبخت في نادي
اليخوت ، كلها صارت وسائل (مبتذلة) لاستعراض الثراء والجاه .. وهو رجل ذكي
(مبتكر) ... وها هو يتكرر فكرة الصاق لوحة من فضة عليها أرقام سيارته بحروف
من ذهب وعما قريب تقلده فئة الأثرياء اي ان سيارات حوالي اربعة بالمئة من الناس
هنا ستحمل هذا الاعلان الجديد عن الأثراء . غضبت ، ولأنني اغضب بصمت يظنني
الناس مذهولة ... سره كثيراً أنني ذهلت . كان هذا غرضه من الفكرة .. بل انه كان
قد اعد محاضرة خاصة بهذه المناسبة يلقها على « المدهولين » . قال لي : « وماذا في ان
أضع لوحة ذهبية لسيارتي ؟ انها لا تكلف مبلغاً كبيراً . اي رجل متوسط الحال يستطيع
تفيلها . ثمن كيلو الذهب حوالي ١١ الف ليرة لبنانية ، وهو ليس بالثمن الباهظ لرجل
يجب الجمال في كل شيء ... ثم انني انفقت مثل هذا الرقم ثمناً لرجاجة نيلد معتي فادر
شربتها ليلة البارحة ، واصابتني بصداع هذا الصباح ! .. » .

كنت ارافقه إلى مزرعته حيث اختار ان (نجري) الحديث الصحفي كي يتسنى له ان (يتصور) مع خيوله واحصته وبين رجاله وازلامه وكلاب صيده ... توقفت السيارة أمام إحدى شارات المرور ... هاجمتنا قبيلة من المتسولين والجالعين الذين أثار جنونهم مشهد الذهب على لوحة السيارة ... كانوا يصرخون به من أجل (حسنة الله) ... وكانت صرخاتهم تهديداً لا تسولاً .. قلرت أنهم في الجولة القادمة سيمرون بالسيارة وصاحبها زوبعة من نار .. لكنه لم يلحظ ذلك وانما تابع حديثه عن عظمته الشخصية وأعجابه ... في مزرعته ، وقف أمام الكاميرا وقد شد عضلاته المهترئة العجوز وابتلع كرشه قلر الامكان ، وبدأ لي جسده (الرياضي) الالري مثل دولاب سيارة نصف مفتوح ... لكن (زله) احاطوا به وقد رفعوا اسلحتهم بكل فخر وقد صوبوها نحو الكاميرا ... كانت رقة الحال والفقر الفكري واضحين على وجوههم ... وكدت أصرخ بهم : أيها الحمقى ... انكم تصوبون نحو الهدف الخاطئ ... ايها الحاملون جلاذيمهم ، غيروا هدف البنادق .. تنفتح لكم دنيا جديدة) ..

انهت مريم مكالمتها واعتذارها الرقيق . هكذا نحن في هذا الوطن . نعتذر عن القشة ونمر بجياد أمام الخشبة التي تقلع عيوننا !! .
انتزعت سماعة الهاتف عن أذني ... كان الألم قد صار حاداً ..

كابوس ٤٥

اكتشفت انه ليس في بيتي شاش معقم ولا (سبيرتو) للتطهير ، فقط دواء أحمر (ميركر كروم) وبعض القطن .. بدل الكتب التي انفق عليها تقودي كلها كان علي تزويد البيت بأدوات مستشفى كامل التجهيز !! ... وبدلاً من السيارة المخلوعة الأبواب كان علي الادخار لشراء سيارة مصفحة تنخلق علي ونحميني كالدرع .. وبدلاً من البيت كان علي أن أسكن ملجأً ذريعاً . وبدلاً من شهادة «الأدب» الجامعية كان علي أن أحمل شهادة من مدرسة (عسكرية) ...

وقفت امسح جرحي ... كان طفيفاً جداً وسطحياً . وقلرت أنها ليست أذني هي التي تؤلمني ... بل آذان أخرى .. اغمضت عيني كي أرى جيداً ...
شاهدتهم وقد شربوا من النبع المسمم بمسحوق الجنون ... شاهدتهم يقطعون أذني

بائع الصحف الذي كان يقف أمام بيتنا كل صباح كي يجمع أقساطه المدرسية كالمساء .. شاهدت الأذان تنقطع في كل زاوية معتمة بالمدينة .. شاهدت النار والنسكاكين ترسم على الأجساد رموزاً من المفروض أنها رموز دينية ... أي إله هو هذا الذي يرضى بأن يدق اسمه بالمسامير في الجماجم ويحفر بلهيب (لحام الاوكسجين) فوق أجساد العباد .. اذهبوا إلى الكنائس والجوامع وإلى شاطئ البحر وسافروا إلى اعماق الكون واسألوه هل يرضى ؟ شاهدت الأذان تتكوم في الشوارع أمام الأبواب وتسدها مثل أكوام الثلج في الشتاء .. شاهدت العيون المفقوعة تعوم فوق فنجان القهوة الذي أعده ... شاهدت أشلاء الأجساد الممزقة تنهال على الشوارع وتتكوم تلالاً أكثر ارتفاعاً من القمامة .. شاهدت السيقان المقطعة تركض هاربة من دون أجسادها ... شاهدت السواعد المقطعة تلوح في الدروب بلا أجساد حاملة الأعلام البيض أو مادة أيديها بحثاً عن طوق نجاة ... شاهدت الأصابع المقطعة تعوم في الشوارع الفارغة متجهة بالاتهام نحو جلادها ... شاهدت رجالاً سحبوا الدماء من عروقهم لتنتقل إلى سواهم يركضون جثثاً مزرقة .. شاهدت رجالاً بلا رؤوس يركضون على أرصفة هذا الوطن الحزين بحثاً عن رؤوسهم التي تم جزها في ليلة مظلمة ... شاهدت الرؤوس المسوحة الملامح لشدة التعذيب ، الرؤوس المقطوعة تعوم فوق بحر الدم والظلمة باحثة عن ألسنتها التي انتزعت بالكماشات من داخلها ... شاهدت الخارجين من أفران التعذيب والنار وهم يركضون مشتعلين ورائحة اللحم المحروق تفوح .. شاهدت المدينة تستحيل مرجلاً من مرآجل الساحرات ويغلي الرجل ويغلي ويدور ويدور بكل ما يحويه في دوامة من الزعيق الدامي .. والرصاص يحترق كل حنجرة تريد ان تقول شيئاً غير منطق الرصاص ... شاهدت الفقراء يموتون . الفقراء الأبرياء وحدهم ماتوا ، الجزائريون هربوا من مدينة الكوايس والجنون إلى كباريات باريس ولندن وجنيف .

وشاهدت حبيبي يطلع إليّ من الرجل ... يجيئوني بجسده المثقوب بالرصاص كالمنخل .. وأضمه إلي وأصرخ به : ما زلت أحبك ...

* * *

كابوس ٤٦

آه كوايس كوايس ...

تبت داخل رأسي وتتسلق جدران دماغي كنبات اسطوري شرير ..
آه كوايس كوايس ...

تفجر داخل رأسي (ام تراها تقع خارجة أيضاً ؟) ... كنت في البداية أراها
حين أغمض عيني - خصوصاً بعد قراءة أكوام الصحف العتيقة للشهر الأخيرة - منذ
بدأت الحرب - كوايس تهاجمني من وقت إلى آخر كالجراد الموسمي ... الآن أراها
باستمرار ... حتى وأنا مفتوحة العينين ... وحين أقف أمام المرأة .. أرى النمل يخرج
من فمي وانقي وعيوني ويأكلني كما لو كنت قد مت منذ زمن طويل ... اليوم تمنيت
لو أرسم بالكحل خطأ فوق عيني لكنني فوجئت بأن رأسي تحول إلى جمجمة عظمية ...
ثم لم أعد أرى نفسي في المرأة ، وإنما سحابة من النار والدخان ... وصغرت حتى صرت
بحجم ذبابة وكبرت المرأة فصارت مثل ستارة شفافة لمسرح مجنون ومددت قدمي فدخلت
إلى المرأة .. وتجولت داخل المرأة ، وفيها ، شاهدت حقلاً شاسعاً أغصانه من البنادق ،
وشاهدت الرجال المقنعين يقطفون البنادق عن الأشجار ... ويللمون الرصاص عن
الأرض كما لو كان أكواماً من الثمار الناضجة ... وكانوا يصهرون حديد المحارث
والمعاول والمناجل ويحولونها أيضاً إلى رصاص .. رصاص كثير كثير .. كانت ييادر
الرصاص تمتد إلى ما لا نهاية ... تذكرت القمح والصيف والبيادر ، وجلستي على اللوح
الخشبي الذي يحره البغل فوق القمح في البيدر ، وكان البغل يدور والسنابل الذهبية تضيء
تحت أشعة الشمس ... وأنا مصرة على الاستمتاع بذلك الركوب الأسطوري في حقل
البركة ، واغاني الفلاحين تترج مع شهقائي الطفولية . هذه المرة ، كانت البيادر مغطاة
بالبارود ورائحة الغضب ، والسماء حقلاً من الحديد الصديء ... والغناء ؟ لا غناء .
فقط صيحات الويل والثبور و (صغائر الأمور) ! ...

وخرج الرجال من حقل الجنون حاملين معهم موسم صيف يروت ٧٥ المر ،
وحصاد الدم ...

* * *

كابوس ٤٧

حمل الأب لطفله هدية في عيد ميلاده . كانت الهدية ملفوفة بشریط ذهبي
وعلبة زاهية الألوان . فتحتها الطفل بفرح . وجد بندقية . سكت . سأله

أبوه : ألم تعجبك البندقية ؟
— كنت أريد دراجة لأركب بها على (اتوستراد) قوس القزح ، ولأكتشف دروب
ألوانه لوناً لوناً .

في عيد ميلاده الثاني جاءه أبوه بهدية . فتحها الطفل متلهفاً فوجد فيها مدفع هاون
صغيراً ... سأله أبوه : ألم يعجبك المدفع ؟
قال الطفل : كنت أريد طائرة من الورق لأركبها وأطير بها مع الطيور والعصافير ...
في عيد ميلاده الثالث ، جاءه أبوه بهدية . فتحها الطفل فوجد مسدساً . قال له أبوه :
هذا أحدث أنواع المسدسات . طلقاته تنفجر كالقنبلة . ألم يعجبك ؟
قال الطفل : كنت أريد غيتاراً أعزف عليه لشروق الشمس وموج البحر وفراشات
المحبة ..

في عيد ميلاده الرابع ، جاءه أبوه بهدية . فتحها الطفل فوجد قنبلة يدوية . سأله
أبوه : هل اعجبتك . أنها كافية لقتل قبيلة .
تبدلت ملامح الطفل . وانتزع الصمام فوراً ، وقذف بها أمه وأباه ، وانفجرت ،
وقتلوا جميعاً ، وتداعت أركان البيت .
لم يسأل الجيران ماذا حدث . كانوا يعرفون ، فقد كان الأمر نفسه يحدث في كل
بيت تقريباً ..

بحث الأحياء القلائل المتبقون ، عن صانع التوايت الذي ازدهرت تجارته في الأشهر
الأنيرة ... أدهشهم أنهم لم يجدوه في مكانه ... بحثوا عنه في كل مكان ، وأخيراً وجدوه
جالساً على شاطئ البحر ..

— ماذا تفعل يا صانع التوايت ؟

— انتظر البضاعة ؟

— ما هي بضاعتك يا صانع التوايت غير صنع التوايت ؟

— لقد افتتحت فرعاً لبيع لعب الأطفال ! ..

ووصلت الباخرة المحملة بلعب الأطفال ، وانزل العمال منها صناديق كثيرة محملة
بالمسدسات والرشاشات والقنابل والبنادق ! ! ..

• • •

أتذكر ...

(كان السلام الريعي ييمن على تلك الضاحية في إحدى المدن اللبنانية ، بينما كنت افتش عن مكان قيل لي انه سيكون مركزاً لإنشاء جامعة ، كنت في مهمة صحفية للكتابة عن الجامعة - الحلم ، وكنت كالعادة ضائعة بين طرقات اجعلها وكان ضياعي بمعنى ما دامت الدرب جميلة ترقص فيها الحياة بكل ألوانها المتجددة الغضة ...

سمعت صوت اطلاق رصاصة ...

بدا صوت الرصاص نشازاً في هذه الحقول المتفجرة حياة وتجديداً ... رصاصة ثانية ... وثالثة ... وانهمر الرصاص وكان صدى الطلقات يطول ، كأنها ترتد بشراسة عن كل غصن أخضر ، عن عيون الخرفان والطيور والسحالي والقطط وجميع كائنات هذه الطبيعة المذهلة ... وكنت ما أزال ضائعة الفتش عن مقر الجامعة - الحلم ... وفوجئت بهم ... خمسة من المسلحين ، يلعبون بمسدساتهم ... بعضهم يقلبها في الهواء ثم يعيد التقاطها كما يفعل رجال السيرك بكراتهم ... سألوني : عم تبحثين ؟ . رجوتهم ان يزيحوا الأنايب السود الموجهة إليّ المحملة برسل الموت ، فضحكوا بجذل نخوفي من السلاح ... قلت لهم ابحث عن مقر الجامعة التي يشاع انها ستؤسس هنا . سخر مني احدهم . الآخر الذي سألتني عن اسمي والمجلة التي اعمل بها لم يسخر ، وانما أشار بفوهة مسدسه إلى الدرب التي علي ان أسلكها . لاحظت ان في يده الاخرى عصفوراً صغيراً مجروحاً . سألته بالمقابل عن اسمه وعمله . قالوا انهم حراس (....) الشخصية الهامة .

قلت : لماذا تطلقون الرصاص ؟

... الافندي في زيارة ونحن فتسل ! ... ولكن العصافير قليلة كما ترين .

اذهلني ان يكون هنالك من يستطيع ان يتسل بالقتل ، حتى ولو كان القتل عصفوراً ...

ظلت طوال النهار حزينة ... لم أكن أدري ان موسم الصيد المقبل ... لن تكون أهذله العصافير .. وانما .. نحن ! ..)

...

كابوس ٤٩

لم تقل المرأة لزوجها شيئاً ، لكنه نهض من القراش مع الفجر وفي قلبه حسرة عميقة..
كان هذه العضلات التي يملكها ، كل هذه القامة الفارعة ، و (الشارب) الصالح
لوقوف الصقر ، وشعر صدره المنبوش ، كل هذه المظاهر الخارجية لا تجدي شيئاً في
معركته مع ... جسدها ..

تلك المرأة الطرية الصغيرة السن التي أضافها إلى زوجتيه السابقتين ، ما يزال عاجزاً
عن احتلال قلاعها البضة .. خمسة عشر يوماً ، وبده التي تضرب رؤوس الحرفان
لتدبحها بضربة واحدة ، تراخي أمام جسدها كما يترأخي كل عضو فيه ... لا يدري
ماذا دهاه ... صحيح انه في السابعة والأربعين ، ولكن والده تزوج امرأته الخامسة حين
كان في الستين .. ما يزيد في عذابه هو صمت الصغيرة الفقيرة - الأكثر فقراً حتى
منه - التي (اشتراها) ... انها لا تقول شيئاً . لا تخرج . لا تفسر . لا تشكو لكنه يلح
في عينيها نظرة انثوية مروعة القسوة والسخرية ... بل أنه صار في الأيام الأخيرة ، يرى
للحرفان رأسها ، فيقبل على قطعها بضربة واحدة ، وبشهوة لا حدود لها ...

ذلك الفجر ، كانت مرارته تتحول إلى بركان من العنف الجسدي حتى انه فكر
بأن يقطع رأسها هي شخصياً ، ويتهمها بسوء الأخلاق وبخيانته ... لكنه لا يستطيع ان
يفعل ذلك بعد ، فهي ما زالت عذراء ... في هذه الفوضى ، لن نجد طيباً شرعياً يكشف
على جثتها .. ولكن ، لماذا لا يطلق عليها الرصاص وهي عائدة من السوق وستلصق
التهمة بقناص ما طبعاً ٢٢ . أجل .. من الأفضل قتلها في الطريق ، وستموت كما يموت
الآلاف في بيروت دون ان يبالي بهم أحد ... بل ان جثتها ستبقى في موضعها أباماً
وستتعفن ... لن تكون من المحظوظين الذين تضم جثتهم البرادات الحكومية ..

أيقظه من أفكاره رنين الهاتف . ان اليك الكبير يريد منه (خدمة) في (المكان
الذي يعرفه) : « أمرك يا بيك . سأكون هناك بعد ربع ساعة » .

بعد ربع ساعة ، سلموه خمسة شباب لا يزيد عمرهم على ست عشرة سنة وطلبوا
إليه (تربيتهم) ثم (تسويحهم) . فرح بالمهمة كثيراً . خلع قميصه . ابرز عضلاته .
خلع حزامه ...

بعد ثلاث ساعات وجدت خمس جثث في إحدى الطرق الجانبية مقطوعة الرأس

وقد تعرضت لتعذيب وحشي تنطق به بقاياها ...
وعاد الجزار إلى بيته . نام جيداً كما لو أنه امتلك خمس عذارى واحدة تلو
الأخرى ... نام من ظهيرة ذلك اليوم حتى صباح اليوم التالي ... ولم تعد زوجته الصغيرة
تقلقه . كان عمله الجديد بملأ عليه (حياته) كلها ... وجيوبه أيضاً .

* * *

كابوس ٥٠

(لم تكن مفاجأة بالنسبة لي على الأقل ان يعلن أخي عن عزمه على الهجرة تلك الليلة
بالذات ... ليلة عيد ميلاده ... فجميع رفاقه الذين جاؤوا كانوا مسلحين .. وكان
السلاح - ليث السهرة .. وكان أخي موضع سخرة الجميع لأنه لا يقتني قطعة سلاح
واحدة ، والسلاح زينة الرجال ... فقال لهم : السلاح زينة الرجال لا الصبيان والحصيان
والحمقى والأولاد ... وكاد يدب شجار لو لم يسارع أحدهم بالسخرة حتى من
سكاكين بيتنا غير الحادة ، والقريبة من الملاحق أكثر منها من السكاكين ! ... كان
أخي قد تخرج مؤخراً من إحدى الجامعات بعد ان استطاع الحصول على منحة دراسية .
كان ذكياً جداً في حقله : الهندسة الالكترونية . غيباً جداً في الحقول الأخرى التي تتطلب
جهداً جسدياً ... وكان يكره الأسلحة ، وأفلام العنف تسبب له قيئاً لا إرادياً ...
قال لي ليلتها : لا مكان لنا في هذه المدينة .

— بل هي مدينتنا وسنصمد وسنقاتل ، كل بسلاحه ...

— أما زلت تصدق ان القلم أكبر من الرصاصة .

— أحد معارف الفلسطينيين قال لي : المهم هو الصنود . حذار من مغادرة بيروت ..

وحين سألته : وانت هل ستغادر بيروت ؟ رد بسخرة : لن نجد فلسطينياً واحداً يخلي
بيته بعد اليوم إلا يوم العودة إلى .. فلسطين .

ويومها كف أخي عن حديث الهجرة وان كان قد ولد في وجهه تعبير ناء .. كأنه

سافر وانتهى الأمر .. كأنه هاجر ولم يعد هنا) ...

ولكن ترى اين هو الآن ؟ هل خرج حقاً لاحتضار طعام ، ام تراه رحل إلى الأبد ؟ ..

ام تراه يرقد على رصيف (الكليمنصو) القريب وفي رأسه رصاصة قناص ؟

* * *

كابوس ٥١

وقف رئيس المخفر على النافذة بائساً . رغم الرصاص والمتفجرات التي تمزق كل ما حوله ، كانت قد صدرت إليه الأوامر بعدم التدخل ... شاهدتهم من النافذة يأتون مسلحين مقنعين . شاهدتهم يسرقون السيارات الخاصة بالمخفر . شاهدتهم يعودون . يدخلون إليه . يجردونه من سلاحه ورفاقه . فلم يتدخل ... هكذا صدرت إليه الأوامر ... ثم لماذا يتدخل ؟؟ والمصلحة من ؟ ومع من ضد من ؟ ... كان المهم هو ان يتوقف هذا الجنون سريعاً وإلا مات بالتسمم ...

كليتة الأولى معطلة والثانية لا تعمل جيداً . انه مضطر للذهاب إلى مركز غسيل الدم في أوقات محددة ، وإلا مات بالتسمم . الأمر يكلّفه ثروة لا حد لها ، وهو حين ينفذ بعض الأوامر (الجائبة) لا يشعر بأنه يحث بقسمه العسكري ... فهو لم يقسم على الانتحار ... وعدم قبول هذه النقود (الجائبة) يعني الانتحار ... راتبه بائس ، وهو بائس ، وقد سر ضمناً حين جردوه من سلاحه وأراحوه من مجرد مهمة التفكير ... ولكن ما يدور أمامه الآن يعلمه ...

منذ نصب المسلحون متاريسهم تحت نافذة المخفر تماماً وهو يشعر بالئوس ... منذ اوقفوا ذلك الشاب الغض وصفعوه لم يتوقف صوت في داخله عن الصراخ كان الشاب صغيراً وبريء العينين ، وقد رفع عينيه إلى نافذة المخفر وصرخ بايمان مطلق بالنجاة : يا بوليس .. تعال خلصني (ارجوك) ...

وكان واضحاً ان الشاب ما يزال يصدق كل ما تعلمه في المدرسة من أن الشرطي يحفظ الأمن ويدافع عن المظلوم ويلقي القبض على الظالم ... وظل واقفاً على الشرفة مشدوهاً وقد ايقظت الصرخة شخصاً نائماً في اعماقه ... وانفجر المسلحون يضحكون للنكتة ١ رجل يستجير برجال الأمن ١١ اية نكتة ١١ ... وعاد الشاب ينادي الشرطي بصوت فيه كل طفولة صبي يستنجد بأبيه ... بدأوا صفع الشاب .. ضربه أحدهم بالبندقية على كتفه فسقط أرضاً وبدأ يبكي ... لكن نظراته ظلت معلقة برجل الأمن المطل من النافذة وبالعلم اللبناني نصف المحروق على المخفر ... كان لا يريد ان يصدق الكابوس الذي يراه ... ضربوه فاستحالت صرخاته إلى حشرات لكن ظله يصرخ : يا بوليس ...

ووجد الشرطي نفسه يندفع من المخفر كالمجنون دفاعاً عن ... عن ما لا يدريه
تماماً ...

ولم يشعر بعدها بشيء .. ولم يشعر حين نقلته إحدى المصفحات إلى براد الجثث
ولم يقرأ الصحف في اليوم التالي ليرى فيها صورته في عمود الوفيات ١١ .

* * *

كابوس ٥٢

رن الهاتف ..

ركضت كالمجنونة ... ربما كان أخي ... لم يكن هو ... كان صوتاً غريباً ، وكان
الصوت يقول : طلب مني شقيقك الاتصال بهذا الرقم وابلاغك أنه في السجن ١ ..

— في السجن ؟ لماذا ؟ لماذا فعل ؟ ...

— لقد القي القبض عليه بتهمة حمل سلاح غير مرخص به ١١

وانفجرت اضحك واضحك واشهق بدموعي .. يا بيروت .. يا مسرح

اللامعقول ١١ ...

* * *

كابوس ٥٣

— ولكنه مسدس أثري ... مجرد قطعة نادرة يجمعها هواة الكنا يجمعون الطوايح .

انه غير صالح للاستعمال ، ولا اعتقد ان رصاصته يمكن ان تنطلق .. لا ريب وان
بارودها العتيق قد اصابته الرطوبة على طول ربع قرن من عدم الاستعمال ...

هكذا قال لي جارنا العم فؤاد حين سألته عن المسدس الذي زود به أخي قبل

خروجه ١ ... أضاف بجملة : « انه مسدس مسكين ومضحك ... مضحك اذا قورن

بالسلاح الحديث وبنادق م ١٦ ورشاشات ٥٠٠ ومسدسات كولت وماغنوم .. لقد

اعطيته لإياه لمجرد رفع روحه المعنوية فقط ١ ! ... وهنا كان لا بد من ان افضي اليه

بالنبا : أخي الآن في السجن . لقد استطاع الهرب حياً من الحي ، ونجا من المسلحين

والقناصين ، ولكن القي القبض عليه ... بتهمة حيازة سلاح غير مرخص ١١ ! ...

لم يبد على العم فؤاد انه يصدق . في البداية انفجر ضاحكاً وقال أن (دمي خفيف) !

ثم بدت على وجهه امارات التعب والارهاق ، واغمض عينيه نصف اغماضة ، وبدأ

انه يحاول ان يتذكر بيتاً من الشعر ... واستطاع التقاط أول الحيط في (المعلقة !) وصار يردد : ومن يدرك الدهر ... ومن يدرك الدهر ... وصار يكررها وقد ثقل لسانه تدريجياً ، ثم راح في اغفامة عميقة ! ...

أتأمله . احسده . ليس صحيحاً ما يقال عن هشاشة الشيوخ . انهم كالسنديان ، يتمتعون بصلابة داخلية ملهشة . منذ البداية أعلن : لن يغادر أحد بيته ... جميع شيوخ الحي قرروا ذلك ... أما شباب الحي وشاباته فقد سقطوا في الحيرة ... ولكن الحيرة أيضاً علامة عافية ... انها علامة حياة وافتتاح على تيارات الأفكار كلها ، وتفجير للأصوات الداخلية وبالتالي لمزيد من معرفة الذات وموقعها من ذلك كله ... ما جدوى تحويل البيت إلى وثن والالتصاق به ، او إلى قبر نموت فيه موتاً جباناً كسولاً متوهمين أننا أدينا قسطنا للعلی ؟ .

في الليل حين تلوي الانفجارات يظل نائماً ، ربما ليس لانه شعجاع وانما لمجرد انه ثقیل السمع ! ...

* * *

كابوس ٥٤

سرفت مذيع أمين ابن العم فؤاد .

لم اسرقه بالضبط وانما استبدلته بالترانزستور الذي املكه . لنقل انني قمت بعملية (مبادلة ارغامية) . فمذيع أمين فيه إمكانية للاستماع إلى الموجات المحلية القصيرة ، اي إلى المخابرات اللاسلكية الرسمية بين الحكام ورجالهم ، بين قوى الأمن الداخلي وقياداتهم ، وحتى المخابرات الهاتفية بين المجهولين والمعلومين ! ... وهو لا يستمع اليها تنفيذاً لأوامر الوالد . أما انا فارغب في الاستماع اليها ومعرفة المزيد عن الحقيقة ... هكذا بررت لنفسني هذا العمل . بالاحرى قمت به براحة ضمير كاملة . كأن المقاييس الاخلاقية في زمن الحرب تتبدل تماماً . ثم انه لا يستمع إلا إلى الموجات (الشرعية) ولم اسمعه مرة يحاول ضبط الابرة على الموجات السرية الممنوع الاستماع اليها ...

أمين نسخة عن والده العم فؤاد ، رغم ان نصف قرن يفصل بينهما ، وهذا هو اسوأ ما في الأمر ... فقي زمنه ، كان العم فؤاد مناضلاً ومقاتلاً ثم رجلاً مهماً من رجالات الدولة ، ومن أبرز جوانب أهميته (الثروة) الكبيرة التي جمعها بوسائل لم تكن .

لا أخلاقية جداً بمقاييس عصره ، قبل ان يتقاعد تحت وطأة أعوامه الخمسة والثمانين ...
أما أمين ، فهو نسخة عن والده ولكن كما هو الآن ! .. انه يرافقه إلى حد العزوف عن
الزواج ، ويبر به إلى حد الانقطاع عن عصره ... يبدو لي ان الحيط الفاصل بين الوفاء
العائلي ، والوفاء للذات وللعصر رفيع جداً ... وأحياناً يضيعه بعض الأولاد فيفقدون
ذاتهم في وهم « الوفاق العائلي » ! ...

أمين مثلاً لا يستمع إلى الموجات المحرمة ، فوالده لا يسمح بذلك . والده ما يزال
يعتبر الدولة دولة ، والحاكم حاكماً ، وما زال يعيش في عالم ذهبي من المثل التي تربي
عليها ومارسها في مرحلة ما من حياته ، لكن أمين الذي يقلده ، لا يلحظ أن العصر قد
تبدل ... وهذا ينطبق على كل شيء ... أما أنا فمن فصيلة أخرى ، كأني من نسل
ذلك الاعرابي الذي أكل لإله التمري حين جاع ! .. وأمين يكرهني كرهماً سرياً كأكثر
أفراد أسرتي ! . انه يحس إحساساً غامضاً بأنني « رجل الأسرة » ويصدمه ان يلحظ من
خلالي ان الفروق الفيزيولوجية لم تعد بالغة الأهمية ، وان الصلابة الداخلية لا تسكن
بالضرورة شاربين مفتولين .. وانها قد تقبع تحت الملمس الناعم لامرأة هشة المظهر ..
وكانت (رجولي) تتحدى انوثته ، وحرיתי تتحدى استرخاءه العقلي ! .

حملت غنيمي (مدياعه) وصعدت إلى (كهفي) في الطابق الثالث ...

السلم الطويل المليء بالنوافذ لم يضايقني كما في الأيام الأولى ... الرصاصة التي
انطلقت لتحرق الجدار خلفي مرتدة إلى الأرض لم تثر ذعري كما في المرات الماضية ،
وانما تابعت صعود الدرج بالسرعة نفسها .. (الالم في اخذي عاودني ... صرت أشعر به
كلما مرت رصاصة بالقرب مني) ما عدا ذلك تابعت صعودي ببرود . تراني بدأت
اعتاد صوت الرصاص وآلفه ، ام انني أكثر إنهيأراً من أن أخاف ؟ ...

هل يمكن للانسان ان يعتاد صوت الرصاص ؟ ...

* * *

كابوس ٥٥

تنفتح لي دنيا من الأمرار وانا استمع إلى الموجة القصيرة ، والتقط الأحاديث الطائرة
في فضاء هذا الوطن الحزين ..
ها قد شف جسدي وصار ريحاً خفيفة ، تسري بسرعة البرق ، تتنقل بين البيوت ،

من قرية إلى أخرى ، من مكان إلى آخر .. تسمع ما تقوله امرأة الحبيبها على الهاتف ، وتنقل بعدها بثوان إلى غرفة الحبيب لتسمع جوابه .. ها أنا أطير فوق الأراضي اللبنانية كلها ، أنصت إلى ما شئت من حوار وكل ذلك بفضل هذا الجهاز العجيب المذهل ... طالما حسدت عاملات الهاتف ... لو كنت عاملة هاتف لأقدمت على الاستماع إلى جميع مخابرات الناس ، و « لتلصصت » على اسرارهم دون اي شعور بالذنب .. فأنا كاتبة .. اي اني مهووسة من نوع خاص ... هوس الكاتب اسمه الحقيقة ، وهو يدفع اي ثمن كي يعرفها ضارباً عرض الحائط (والباب أيضاً) بكل القيم الاخلاقية الصغيرة السائلة ...

اجبناً أجلس وحيدة في مقهى ارقب اثنين يتحاوران .. وبصعوبة أقاوم رغبتي في الجلوس خلفهما لاستراق السمع أو للجلوس مباشرة معهما وأنا أقول لهما بصراحة : « ارجو أن تسمح لي بسماع ما يدور ... وبالتفاد إلى اعماقكما .. لن أؤذيكما .. لن نخسرا شيئاً .. أنا أنا فسأتعلم الكثير . » . ولكنني كنت احبم في اللحظة الأخيرة . سيظنونني جاسوسة تعمل لحساب منظمة ما . لن يفهموا ان الفنان هو مؤسسة للتجسس على الحقيقة ! ..

حوار ١

ارفع صوت المدياع قليلاً واسمع الحوار التالي :
— إلى سمير ١ بدل ... هنالك بناء على سطحه قناص مقابل جاليري .. اذهبوا وحاصروه . إلى سمير ١ بدل .
يأتيه الجواب شبه ساخر : « سيدنا ، (مش عم بسمعك) اي لا اسمع ما تقول جيداً ... »

يكرر المسؤول صراخه : « إلى سمير ١ بدل .. حاصروا البناء الذي يتواجد على سطحه أكثر من قناص ، قتلوا أكثر من عشرة من المارة اليوم ... دكوههم بالمدفعية ... »
رد الصوت اللثيم ساخراً : « سيدنا مش عم بسمعك ! »
وانقطع الاتصال ...

وتخيلت القناص يتابع قتله للأبرياء ، تحت حماية أحد العسكريين الذين نسوا قسمهم بالانتماء إلى الوطن العصري وعادوا إلى انتماءاتهم الأخرى : الدينية — العشائرية ...

وغيرها ... يكرر القائد بحركة : « إلى سمير ١ اقتلوا القناص ... » .

يتكرر الجواب : « سيدنا .. لا اسمعك !! ... »

وكيف يسمع الأوامر ، اذا كان يتلقى أوامره من مصدر آخر .. يا للرعب حين يصير الحكم (بفتح الكاف) طرفاً ! ... كأن المتني كان يعيش حربنا الأهلية حين صرخ : وانت الحصم والحكم ! ...

حوار ٢

تتوالى الأصوات المختلفة ، وتسقط الأقنعة ...

— اين وصلت ؟

— وصلنا وحاصرنا البناء ...

— ماذا حدث ؟

— صعدنا إلى البناء وفتشنا ، ولم نجد أحداً !! ...

حوار ٣

— سيدنا عندنا سيارة اطفاء معطلة قرب المخفر بعد اطلاق النار عليها ... سيدنا

نريد نجدة ... نريد نجدة ... انهم يطلقون النار و .. بدل

— لا أحد يطلق النار عليكم ... هذا رصاص طائش ...

— سيدنا ، قتل اطفائي ...

— رصاص طائش ...

— سيدنا عطلوا الملائة ، وهناك ثلاثة جرحى ...

— قلت لك « رصاص طائش » . بدل .

حوار ٤

— سيدنا هناك ثلاث جثث على الرصيف ... بدل

— احملهم معك .. بدل

— سيدنا السيارة لم تتسع للجثث كلها .. بدل ..

— ضع الباقي بينك وبين السائق ... بدل ..

حوار ٥

— سيدنا الاطفائية اللي جاية تطفي النار بيت .. قرب معمل ... خطفها مسلحون ... بدل

— تابعوا الدورية في الجهة الثانية من الشارع ... بدل ..
 — سيدنا خطفوا سيارة الاسعاف أيضاً .. بدل ...
 — لم يخطفها أحد ... تابعوا مهمة الدورية بدون تدخل .. بدل ..
 — سيدنا هنالك حاجز من المسلحين يأمرنا بالتوقف .. هل تقاوم .. بدل ..
 — لا يوجد حاجز .. لا يوجد خطف .. بدل ...
 — سيدنا خطفونا ... يطلبون منا تسليم المصفحة واسلحتنا .. بدل .. سيدنا هل
 تسمعي ؟ خطفونا ! ...
 —

حوار ٦

— من ٧٢٥ أوكي ، ماذا وجدتم ؟
 — من الحازمية وما فوق لا يوجد شيء ...
 — ابلغونا عن وجود حاجز خطف عشرة أحدهم جريح ... تحقق من الأمر ..
 بدل ...
 — سيدنا لا يوجد خطف ... اخوان (بين بعض) ، وسوء تفاهم بسيط ..
 — أمركم بالقضاء القبض على الخاطفين واعادة المخطوفين .. بدل ..
 — سيدنا (ما بتحرز) ... انهم فقط يسألونهم بعض الاسئلة ... الحالة هادئة ...
 — نفلوا الأوامر فوراً .. بدل
 — سيدنا لا نستطيع ... قالوا انهم سيخطفوننا .. اذا عدنا لمضايقتهم .. بدل ..

حوار هاتفي ١

— الو ... سوسو
 — أهلاً ... كوكو
 — ما الأخبار ؟
 — لا شيء ... مجرد كوارث وقرف .. تصوري البارحة تركني الطباخ المصري
 والد (فام دي شامبر) والمربية الفرنسية ستترك الأولاد لترجع إلى بلادها ...
 — يا للهول .. وماذا ستفعلين يا سوسو ؟ ..
 — سنسافر معها ! ...

— معك الحق كله .. لم نعد نستطيع العيش في هذا البلد .. تصوري ، البارحة ذهبنا إلى (الوايت واو) للسهر ، وكنت ارتدي (الروب لونغ) والقرو القيزون الحديد ، ومع ذلك أصر صاحب المطعم على أن ننهي عشاءنا قبل الساعة ١٢ لأنه خائف ... تصوري يا كوكو رجعنا للبيت الساعة ١٢/٣٠ ولم نجد أي مكان آخر للسهر ...

— انها « حياة كلاب » فعلاً .. يجب أن نهجر ...

— على ذكر الكلاب ، سنحمل معنا القطة ماري انطوانيت ، أما القط عنتر فقد هرب .. كما قلت لك ، سرافق جميعاً المريية الفرنسية إلى باريس .. الفلوس حولناها ... ماذا يربطنا بهذا البلد ... وبكل اولئك المتوحشين والأغراب (الصوفاج) ...

— يقولون ان هنالك جوعاً في البلد ...

— عيب هذا الكذب .. لم ينقطع (السومون فوميه) يوماً واحداً عن البلد ... اين الجوع ؟ كلبي وحده يأكل كل يوم كيلو من اللحم ...

— زوجي يقول انها مؤامرة صهيونية شيوعية عالمية وان الدنيا لولا ذلك بألف خير ... طبعاً ... زوجك يفهم في كل شيء ... اسأليني أنا عنه ! ...

حوار هاتفي ٢

— ألو .. اسمع يا أخي ... لن نتخلى عن مطالبنا لمجرد ان الشيوعيين يتبنونها ، ويناضلون لاجل تحقيقها . هنالك جوع في البلد . هنالك بطالة وبؤس ومرارة . العدالة الاجتماعية يجب ان تتحقق وإلا فلا مفر من سقوط المقصلة عاجلاً أو آجلاً ...

— أنا معك ... لكن ما يدور هو مجرد قتال مجنون .. وما كل قتال ثورة .

— أحياناً تبدأ الأمور هكذا ... يذهب جيل من الضحايا كي تبلور ثورة واحدة ...

لو يفهم الحكام ذلك لوفروا علينا وعلى أنفسهم هذا القربان الباهظ ...

— ولكن ما يحدث الآن هو مجرد كوايس ...

— ربما ... ولكن كوايس الجوع ليست اضغاث احلام ... انها انفجارات هوجاء

لقضية عادلة ...

— بين جنون الدم وصرخة الحق خيط رفيع وقد ضيعته الأطراف كلها ..

— ربما مرحلياً ... ومطلوب من المتقاتلين مراجعة ذاتية كي يتوقف شلال الدم

عن الانهيار عبثاً .. ليس الموت هو المرعب اذا كنا نموت من أجل بناء حياة أفضل

لاطفالنا ... المرعب هو ان نموت عبثاً ودونما معنى ...

حوار هائل ٣

— هل ستأتي الليلة ؟ الأولاد يفتقدونك ...

— لا أستطيع ، المستشفى تغص بالجرحي ... ويجث الذين يموتون ساعة وصولهم ...

— ولكننا لم نرك منذ ثلاثة أسابيع .. وقد وعدت بالحضور الليلة مهما كانت

الأحوال ...

— آسف يا منى . لا أستطيع ..

— في صوتك شيء غير عادي .. ماذا حدث الليلة ...

— لا شيء ...

— أريد ان أعرف ... انني واثقة من أن شيئاً غير عادي قد حصل .. ما هو ؟ ..

— جاؤوني برجل اطفائي برتبة عريف ، قالوا انه كان يسحب مياهاً تسربت إلى

بعض المستودعات ، وكان قد لفظ انفاسه ، فقد اطلق عليه الرصاص مسلحون ..

— ما الجديد في ذلك ؟ انهم يطلقون الرصاص باستمرار على رجال الاسعاف

والاطفائيين ... ويأتونك كل يوم بعشرات !

— الجديد في ذلك أن الاطفائي كان مبتور الذراع اليمنى والقدمين ! .. هنالك من

لم يكتف بمنعه عن العمل ، بل هنالك من عذبه قبل القتل وتلذذ بذلك . هنالك من استخدم

فأساً و (حطّاب) أعضاء جسده .. اسمعي يا منى .. أنني أشعر بالخوف .. هل تفهمين ؟

أشعر بالخوف لأول مرة ... ما يجري في هذه المدينة له طعم الجنون .. لهذا القتال للذة

السادية ، وهذا ما يرعبني ...

أشعر بحاجة إلى الرحيل ...

— هذه أول مرة تتحدث فيها بهذه اللهجة ، وانت الذي كنت تعيب على اخدقائنا

سفرهم ومغادرتهم البلاد بينما هي تترف بدلاً من العمل لوقوف التزييف ...

— صارت يدي ترتجف وأنا أجري العمليات .. البارحة لاحظت الممرضة ذلك

بينما كنت أخيط جراح صبي في الرابعة عشرة من عمره ... تصوري انهم خطفوه

وعذبوه ... والذين عذبوه لا يزيد عمرهم عن عمره بكثير كما ذكر لي .. لقد خطت

جرحه بأسوأ مما يفعل اي تلميذ طب مبتدئ ..

— تعال فانت متعب ...
— سأعترف لك . لا أجرؤ على الخروج من باب المستشفى . صرت أخاف من الشوارع . وقد علقوا بعد الظهر أمام باب المستشفى لافتة مكتوب عليها : انتبه . قناص يرحب بكم .
— ماذا ستفعل ...
— سأصعد إلى سطح مستشفى واعمل قناصاً ... انني خائف خوف الحمل الطفل .
لن يتقذني سوى ان اتحول إلى ذئب ...
وانفجر يضحك كما لو أنه القى بنكتة . لكنني سمعت مني تصرخ :
« ارجوك تعال قبل أن تجن » ...
كان واضحاً انها تعرفه جيداً ... وانها تعرف انه كان جاداً فيما قاله ، وانه بعد اقفال الهاتف بدقائق سيكون واقفاً على سطح مستشفى ... تراه سيطلق النار على رأسه بعد أول عابر سبيل يصطاده ؟ ...

* * * كابوس ٥٦

لقد انهدم الجدار ... صارت الريح مملكتي ، وصرت قادرة على الاستماع إلى أي حوار يدور في هذا الوطن الحزين ، بفضل ذلك الجهاز العجيب : الموجة القصيرة في ترائزستور أمين ...
ارهقتي الانصات بصورة لم اكن اتوقعها .. نهضت أبحث عن شيء آكله .. وجدت بقايا علبه فيتامين وفرحت بها ... لا أحد يدري حتام يطول سجنني ... ها أنا اشرف على نهاية اليوم الثالث ولم يقرع بابي مخلوق ولم يمر على الرصيف المقابل انسان ...
حين يهدأ دوي الرصاص ، تأتيني من جديد أصوات اولئك المساكين : مخلوقات بائع الحيوانات الاليفة القريب ...
انه اليوم الثالث وهي معزولة وسجينة لم تر الشمس .
لعلها بدأت تجوع . لعل الطعام في اقفاصها قد نفذ . والماء أيضاً . حتى ولو أراد صاحب الدكان إطعامها لعجز عن ذلك في مثل هذه الظروف ... لا اعتقد أن أحداً يمكنه الوصول إليها .. ربما كنت قادرة على ذلك ، إذا تسللت من باب بيتنا إلى الحديقة ومنها

إلى نافذة المخزن الخلفية التي يوازي ارتفاعها سطح الأرض عند سور حديقتنا ... ولكنني الآن هدف ممنوع لعشرات القناصين المحيطين بنا ... عليّ أن انتظر حتى الغروب ... ما الذي يشدني إليها ؟ ما الذي يجعل أصواتها تسكنني ؟ ما الشيء المشترك بيننا ؟ لقد أحببت دوماً جميع مخلوقات الطبيعة من يوم وسنجاب وسحالي وضفادع ولكن ما أحسه الآن يختلف تماماً . اشعر برابطة بيني وبين سجناء ذلك المخزن المرتعدين خوفاً في أقفاصهم ، عزلاً وحائرين ! تراها رابطة وحدة المصير ؟ .. تراني واحدة منهم دون أن أدري ؟ .

* * *

كابوس ٥٧

عادت الصواريخ ... اشعر بالاعياء ... أحتمي بالدهليز ، مهددة بالموت مطمورة تحت رف الكتب الكبير ... أتذكر الجاحظ الذي مات مطموراً بكتبه أثر سقوطها عليه . أتذكر الشاعر توفيق صايغ الذي طالما أبدى لي خوفه من الموت تحت رف كتبه . كانت غرفة نومه مليئة بالرفوف الخشبية ، ولو سقطت فوقه لقضت عليه . ظل يخافها ولا يفارقها . لكنه لم يمت تحتها . مات بعيداً عن بيته وأهله ، في أميركا داخل مصعد ... ترى هل كان المصعد خشبياً كرفوف كتبه ؟ وهل كان مقدرراً لإخشائها أن تصير مكتبة ، ثم بدلت في آخر لحظة إلى جدران مصعد ؟

آه الدهليز يحيط بي من كل جانب .. تراه قברי ؟ اغمض عيني ... يفتح جدار الدهليز ... أتذكر ابن الرابعة عشرة الذي سمعت الطبيب يتحدث عن جرحه المفتوح ... أرى أطفال هذا الوطن الخزين وهم يرقبون فيلم العنف الذي يلور على شاشات نوافذ بيوتهم التي تحولت إلى تلفزيونات لا تبث غير مشاهد العنف .

أرى كريم ، عمره ١١ سنة أو أكثر قليلاً . كل ليلة يعود والده مغطى باليدن بالدم وكريم يرى ... كل ليلة يتحدث والده إلى بقية رجال الحي عن عدد الذين قتلهم وعذبهم وكريم ينصت ... الجار يتحدث عن عدد المحلات التي نهبها وكريم ينصت ... الشوارع خالية ، وأهل المدينة قد اختبأوا في بيوتهم التي تحولت إلى أقفاص مهددين بالموت جوعاً أو حرماً ، تماماً كمخلوقات بائع الحيوانات الأليفة السجينة في المخزن وكريم يرتجف . المدينة مخزن كبير لبيع الحيوانات الأليفة . الشوارع يملكها من يمرؤ على الخروج إليها

وكريم يفتتح .. الجار يذهب إلى أي مخزن يختاره مع غلد من رفاقه .. يكسرون الباب يدخلون يحملون ما يشاؤون من حاجيات : برادات ، غسالات ، تلفزيونات ... كل ما تريده ملك لك اذا كنت تجرؤ على الذهاب لاحتضاره وكريم يتعلم .

وكريم يحلم . يحلم منذ طفولته بأنه يمتلك مخزناً كاملاً للألعاب ، يطلقونه فيه طوال النهار دون حسيب أو رقيب . هذه الليلة نام كريم كعادته وهو يستعجل قلوب الحلم . استيقظ في الصباح وقد هجره الحلم . لم يحلم . لم يدخل مخزن الألعاب الكبير القريب من بيتهم . لم يركب السيارات الشبيهة بسيارات الكبار والمحرومة عليه لفقره . لم يلمس البسكليتات البراقة الألوان . لم يتحسس شعر الدمى ويكشف ثيابها عن سيقانها ليكتشف جسدها . لم ينفخ فقاعات البالونات الملونة . لم يعزف على البيانو الصغير . لم يضع عينه على الميكروسكوب النموذج . لم يعمر بيتاً من الميكانو . استيقظ وقد أحس أنه خسر شيئاً ما ... لكن شعوراً جديداً غمره ...

جمع أولاد الحي . كان أكبرهم . لقب نفسه بالزعيم ، « ابو العتمة » ، تماماً كما يحلو لوالده وللجار ان يناديهم أصحابهم ...

وهمس بخطته للأطفال ، فوافقوه فوراً ... كان قفل دكان بائع الألعاب حديدياً لكنهم استطاعوا باجسادهم الدقيقة الانسلاخ من القفوة التي أحلتوها في زجاج الواجهة .. قفزوا داخل مخزن الألعاب مثل الف قط متوحش أطلقوا فجأة على الطعام بعد طول جوع ... كان أكثرهم حفاة ، هاجموا الألعاب التي نموا عاماً بعد عام وهم يرقبونها من خلف الواجهة الزجاجية بحسرة ، ويرونها أحياناً في أيدي الأطفال الآخرين الذين يركبون السيارات ويرتلون الأحذية ... لعبوا كما لم يلعبوا في حياتهم ... لم يتركوا دمية لم يجربوها ... لم يتركوا دمية لم يقطعوا رأسها في محاولة منهم لاكتشافها ... لعبوا طوال النهار ، وكانت الشوارع خاوية تماماً ، ولم يلحظوا الرجل الذي سقط قتيلاً برصاص قناص على الرصيف في الخارج .. ولم يعودوا يسمعون صوت الرصاص ... كان هجومهم مركزاً على الأسلحة القتالية في مخزن الألعاب ... المسدسات والرشاشات والسيارات الجيب والمدافع والمصفحات والمدافع والطائرات وقلائل منهم اهتموا بسيارات الاسعاف أو الحريق ، فقد سمعوا آباءهم يتحدثون عنها بازدراء كأهداف سهلة لا تقلد على الدفاع عن نفسها ... تم تغبوا وجاعوا ، ومع الجوع شعروا بشيء

من الخوف فقررروا العودة إلى البيت بعد ان يحمل كل منهم ما يقدر عليه من غنائم ...
طفل واحد منهم فقط ، قرر أنه يكره الأسلحة وصوتها ، فقد شاهد المسلحين يقتلون
والده أمام عينيه ، وفضل معانقة دمية كبيرة زرقاء العينين حريرية الشعر ، تغمض عينيها
وتفتحهما ، وتنطق بلغة لا يفهمها حين يضغط على زر معين تحت إبطها ... كان أول
الأطفال إلى الخروج من المخزن ، وكان يرتجف ، فتعثر وسقط على زجاج الفجوة
التي تسالوا منها ، واخترقت جسده كخنجر حاد .. خاف بقية الأطفال حين شاهدوا
الدم يتدفق والطفل لا يصرخ ، وتجمعوا حول كريم بصفته زعيم الحملة ، لكن كريم
كان مذعوراً ، وأراد ان يرمي بالرشاش الذي اختاره والمدرعة والمسلمين ويهرب ،
لكن الطفل كان يتزف وقد سد الفجوة بجسده .. وعبثاً يزيحونه من الدرب ... وتعالى
صراخ الأطفال ، وتشاجروا وصاروا يطلقون النار بعضهم على بعض وسقط منهم بعض
القتلى والجرحى ثم تدافع الناجون فوق جسد الصغير النازف الذي ظل ممسكاً بدميته ،
وكان عليهم ان يلوسوه كي يخرجوا ، وكانوا يتدفقون على الأرض واحداً بعد الآخر ،
والزجاج يمزق أجسادهم الطرية ...

الأطفال الذين عادوا تلك الليلة إلى بيوتهم كانوا يتزفون ، لكنهم كانوا ما زالوا
يقبضون على أسلحتهم بشدة ! ... طفل آخر كان يرقد على الرصيف إلى جانب
جثة الرجل .. كان آخر طفل خرج من الفجوة وقد اعتبره القناص عصفوراً ..
فاصطاده !

* * *

كابوس ٥٨

هدأت الانفجارات قليلاً ...

غادرت الدهليز ، مقري (الحربي) ... ذهبت إلى فراشي ، وكان الرصاص قد
مزق الوسادة ... غمرني لا مبالاة يائسة ... تمددت فوق الفراش المليء بشظايا الخشب
والحديد والرصاص وحاولت ان استرخي .. قليلاً ... فككت رأسي من مكانه ووضعت
إلى جانبي على الوسادة .. عبثاً أنام ... تعلقت عيوني بالساعة الرملية التي كان قد أهداني
اياها حبيبي يوسف ... كانت تتألف من كرتين من الزجاج الشفاف يفصل بينهما مضيق
يسمح بانتقال الرمل من كرة إلى أخرى ... وكان انتقال الرمل من كرة إلى أخرى

يستغرق نصف ساعة بلغة الساعات العصرية ... كان رملها فضي الزرقة ، اثري اللون
كما لو كان لون الزمن ... قال لي يومها : سيظل حيي لك متدفقاً كهذا الرمل .. كلما
شككت في حيي ، اقلبي الكرّتين ، واذا تدفق الرمل فهذا معناه أنني أحبك .. لم أشك
لحظة في حب يوسف حتى الآن وهو ممزق (دوماً يأتيني والريح تهوم عبر ثغوب جسده
فاضمه إلى قلبي بكل ما في روحي من طاقة على الحنان والاتحاد بروح أخرى) ...
ولكنني قلبت الكرّتين .. وبدأ الرمل يتدفق من الكرة العليا إلى الكرة السفلى ببطء ولكن
باستمرار ... باستمرار ... أتأمله يتزلّج ... يتزف ... دونما توقف ... لا شيء يستطيع
إيقاف إنزلاق رمل الزمن ... لا فجیعة ، ولا فرحة ، ولا زلزال ، ولا حرب أهلية ،
ولا موت يوسف ... ولا موتي أنا ، واذا أصابني في هذه اللحظة رصاصة فجرت رأسي
فسوف يتابع الرمل جريانه المحتوم ... لعلّ مرهقة وقد هدثني الانفجارات المتتابعة ،
فقد نفدت الكرة العليا من الرمل وتكوم الرمل في الأسفل وان كنت أعرف ان رمل الزمن
اللامرئي ما يزال يتابع جريانه في كرة الكون اللامتناهية الاتساع ...
تأملت الرمل الفضي الأزرق المكوم في قاع الكرة السفلى ... وفجأة حدث شيء
عجيب ... بدأ الرمل يصعد من الكرة السفلى إلى الكرة العليا بالسرعة ذاتها التي يتدفق
بها عادة ... كأن الزمن يعود إلى الوراء ... ثم بدأ تدفق الرمل من الأسفل إلى الأعلى
يتسارع ... يتسارع .. يتسارع .
ها أنا ويوسف معاً على شاطئ البحر ، وجسده ليس مثقوباً بالرصاص ... ها نحن
نعيش أيامنا الحلوة ... كل شيء يتكرر ... تماماً كما كان .

* * *

كابوس ٥٩

ها أنا ويوسف معاً على شاطئ البحر نجلس على الصخور ... كنا بريئين وقيمين
كالأسماك ، والحب يتدفق من انحناء جسده نحوي كرحم .. كان حضوره يحيط بي
كدائرة حول نقطة ... احسست به كيئاً من كهارب الضوء والمغناطيس ، وكنت
منجذبة اليه ومسحورة بحضوره ... انه الشاطئ حيث كنا ... وحبنا يكتمل دائماً خارج
الجلدان ، خارج المقاهي ، خارج الاسمنت .. لم تكن علاقتنا قد انقطعت مع نباتات
الأرض ومخلوقات البحر والطيور والرياح والفصول وزنايق الصخور ، لم تكن قد قطعنا

(الحبل السري) الذي يربطنا بالكل الواحد ، وكان لقاءنا يمنحنا ذلك الحس المذهل
بالسلام ، وبأن الكون متناغم مع دوران الدم في عروقنا .. ذلك الحس الرائع بأن ايقاعك
استطاع أخيراً التواصل مع ايقاع الوجود ، وانك لا تشعر بنخل بين صوتك الداخلي
وصوت الكون الكلي البهاء المحيط بك ... وبأنك بطريقة ما امتداد للرب الكوني العظيم ،
وضربات قلبك متناسقة مع ضربات قلبه ، وقلب البحر ، وقلب الشجر ، وقلب الحجر ،
وقلب الريح ، وقلب الليل ، وقلب النجوم ...
(انه الشاطئ حيث كنا ..)

وكنّا رعايا مملكة الحب ، وكان علينا ان نلتفت إلى الوراء لنرى بيروت تربع بنا
كالوحش ... بيروت التي كل ما فيها قائم على مناصبة العداء للعدالة والحق والرب ،
اي على مناصبة العداء للحب ..

كان علينا ان نفهم ان بيروت تقف خلفنا كالتقناص لتصطاد حبنا ..
كان علينا ان نفهم ان العمل من اجل إنقاذ حبنا يحتم علينا العمل من أجل إنقاذ
بيروت .. لانك لا تستطيع ان تزرع غابة على سفح بركان هالج .. لا تستطيع ان تبني
بيتك داخل قبلة موقوتة ...

قال لي يوسف : كل ما في هذه المدينة ضدنا ، لا لأننا ننتمي إلى دينين مختلفين ،
ولكن لمجرد أننا .. نحب .

والفت خطفي . شاهدت بعض الرؤوس نخبيء وراء الصخور .. قلت : هناك من
يراقبنا .. كانت الرؤوس تتكاثر ... خلف كل صخرة كان هناك من يراقبنا كالحراس ..
مد يده ليمسك بيدي ، ليتوحد شريان ما بيننا ويسري الدم من جسده إلى جسدي ،
والانفعالات والارتعاشات ، ولنصير كتوأم في رحم الحب . قلت له : ارجوك ... لا
تمسك بيدي ... ذلك سيشجعهم على الاقتراب منا وربما الاعتداء علينا ...
كانت الاحتمالات كلها ممكنة .. كأن نعرض لرصاص قناص .. أو لمسلح يسطور
على ما نملك ، أو لكل صور الاعتداءات الاخرى الباقية ...

وما دعنا نجلس هكذا ، واحداً بعيد عن الآخر ، فأنهم سيكتفون بمراقبتنا متحفظين .
واول بادرة حب نعبّر عنها جسدياً ستكون بمثابة اشارة الانقضااض ، لأنها ستحرماننا من

(حماية الرأي العام) التي ما نزال نتمتع ببركتها ، بحيث قد يتبرع البعض للدفاع عنا في حال (الهجوم) علينا ...

قال لي : غريب امر البشر في هذه المدينة . لو ضمنتك إلى صدري وقبلتك لصار كل الذين يرقبوننا من خلف الصخور شبه اعداء لنا ... واذا اعتدى احدهم علينا لسيغض الباقون الطرف ... اما اذا صفعتك مثلاً فإن أحداً لن يتدخل لا لانهم سيظنونك زوجتي بل لأن مظاهر الكره لا تثير البشر في هذه المدينة بقدر مظاهر الحب ... الكره مشهد عادي بالنسبة اليهم . الحب مشهد خطر .. تهديد لهم . لو تشاجرنا الآن لكفوا عن مراقبتنا ، لانهم سيطمثون إلى اننا مثلهم !! الحب يثير الانتباه والفضول والرغبة بالاستغلال والرفض الجماعي ، اما الكره فانهم يمرون به كظاهرة عادية ..

قال لي : احبك فعلاً ... لو اتى مسلح وبلغني انه يريد ان يقتل احداً منا لقدمت له نفسي فداء لك ...

— احبك .. ولو رمى احدهم الآن باصبع ديناميت لابتلعه فوراً لاحميك بجسدي ...

— لو مروروا فوق مصفحة جيئة وذهاباً كي اهجر ك لما فعلت ..

— لو انتزعوا لساني من فمي بكماشة وقطعوه لظلمت اردد اسمك .

— لو خيروني بين فراقك اسبوعاً واحداً او قطع اذني لتركهم يقطعون اذني دونما

تردد ...

وفجأة وجمنا معاً . لاحظنا اللغة التي نتبادل الهوى عبرها .. كأن الطيور بدلا من ان تغني صارت تعول .. كأن البلابل لا تزقزق وانما تولول .. لاحظنا الى اي مدى تشوهنا ، حتى صارت لغة الحب هي نفسها لغة القتل والعنف والارهاب ... ضحكنا من انفسنا لكن كلا منا كان يشعر في اعماقه بغصة لا متناهية ...

اقرب منا رجل يحمل سلة وقصبة طويلة للصيد . كان حافي القدمين تبدو عليه رقة الحال . تأملنا بعينه الضيقتين اللتين ازدادتا ضيقاً حتى صارتا اشبه بثقيين حادين تخرج منهما اشعة شريرة ...

قال يوسف : حتى الفقراء ضد انفسهم لانهم ضد الحب كالاغنياء .. لقد ربوهم على ذلك لقتل غريزة الحق في نفوسهم .. انهم منذ الصغر يلقحونهم ضد الحب تحت

ستار القيم المتوارثة والدين والاخلاق والفضيلة .. وحين تتعطل حاسة الحب تتعطل معها حاسة الثورة ... اولئك الساسة المحنكون يلوثون قمع الجماهير بالمفاهيم الخاطئة ويخنقون حاسة الحب فيهم ، كما تخنق حاسة الجنس لدى المساجين بدس الخشخاش في مناهمهم ...

وكنت اتأمل الصياد العاري القلمين . بدا لي حائراً بقلدر ما هو جائع .. لم يعد الانبياء العصبي مرض المترفين فقط . انه الآن مرض اضافي لامراض الكادحين (في التاكسي ما تكاد تغلق الباب حتى يفتح السائق فمه . يياشر بالشكوى . بالصراخ من حال البلد . حياته مهددة في كل لحظة بالموت والاختطاف . ترفع سماعة التلفون لتطلب مغابرة . عاملة الهاتف تقول لك : لا ضرورة لهذه المغابرة فستكون على اية حال مجرد ثرثرة ، فالعمل متوقف في هذه المدينة .. دعني انا اثرثر لك . ان مجرد حضوري لممارسة عملي مغامرة لا تصدق ... دعني احكي لك ما حدث لي في طريقي اليوم ...

واذا ذهبت الى البقال لتشتري شيئاً فستجد نفسك كأنك في ردهة واحد مستشفيات المجانين . سيكون هنالك شخص ما فقد اعصابه اكثر من الباقين ، وسيجد وسيلة لفتح حوار مع احد الزبائن ، سيلجأ الى حوار بصوت عال بما فيه الكفاية ليشارك فيه الجميع لانهم متعبون وخائفون وحائرون ، وهم يشعرون حاجياتهم دونما بهجة لانهم يعرفون انها مجرد مؤن لسجن لا يلجأون الى متى يطول ، ثم ان احداً منهم ليس والقا من انه سيصل الى البيت سالماً بأشياءه كلها ... اية سوبر ماركت في المدينة هي ردهة من ردهات احد مستشفيات المجانين ... ايقاع الحوار ونبض المدينة كلها هو نبض مصح عقلي شامع ... ترى اين قرأت ان احد المجانين فر من مستشفى حاملاً معه اللافتة المكتوب عليها « مستشفى المجانين » ، حيث انتزع لافته « بيروت ترحب بكم » وغرسها مكانها ؟ ...

كنت اتأمل الصياد ، وقد شردت مع افكاري ... وكنت سعيدة لانني عاشقة ، فالحب درع في زمن الحروب الاهلية ، يحمي من الجنون على الاقل ، وان كان يجعل العلاقة اكثر مرارة وصعوبة ... كان زواجنا في مثل هذا الزمن الرديء سيتحول الى فضيحة (قومية) في اجرائنا العائلية لمجرد ان العبارة المكتوبة في خاتمة (المذهب) في بطاقتي الشخصية ، تختلف عن العبارة المكتوبة في بطاقتي الشخصية ! .. ان (بطاقتي

الشخصية) ليست (هويتي) ولا ادري سبب توهم الناس انهما عبارتان مترادفتان ...
وفجأة ، سقط الصياد على الارض ... ركضنا اليه ، يوسف وانا و (حراسنا)
من الفضوليين . كان ما يزال حاراً ، وعيناه ما تزالان مفتوحتين ، لكنه كان يحدق
في نقطة غير مرئية بالنسبة لنا .. ومن مؤخرة رأسه بدأ قليل من الدم اللزج يتبدى بوضوح
فوق شعره الاشيب خارجاً من ثقب كبير .. والتفتنا إلى الخلف بهلع ، هنالك قناص ما ،
رابض خلف بندقية ما ، هنالك رصاصة ما يمكن ان تنطلق في اية لحظة لتصيب رأساً
من رؤوسنا ولم نر شيئاً سوى مئات النوافذ المشقوقة في عشرات الابنية الشاهقة المحيطة
بفندق الكارلتون .. وحدث ما توقعناه . انطلقت الرصاصة الثانية ، واصابت الارض
قرب اقدامنا راسمة حدوداً نارية غير مرئية . فهمنا ان القناص لا يريد ان نتجاوزها ...
وفهمنا انه مطلوب منا ترك الرجل يموت اذا لم يكن قد مات .. مطلوب منا العودة إلى
الاقفاص المعلقة لنا كأبي قطيع من الحيوانات التي تم ترويضها على الخوف وسجن نفسها
تلقائياً . رصاصة واحدة في اي شارع صارت كافية ليهرع كل من يسمعاها أو يسمع
بها راكضاً إلى قفص وقد احكم على نفسه اغلاق الباب ! ...

خمس دقائق ، وفرغ الشاطئ .. كان علينا منذ تلك اللحظة ان نفهم ان « الحياض »
او (المسألة) هي الجريمة الاولى ... كان علينا ما دما قد رفضنا الرحيل ان يكون بقاؤنا
(فعلاً) ، لا كبقاء الاشجار التي لا تغادر المدينة لمجرد انها زرعت هناك ... كان علينا
ان نعمل كي يكون البقاء مجدياً وجميلاً ... كان الحياض هو خطيئتنا ، ولذا فقد دفع
حبيبي حياته ثمناً بأن مات عبثاً ... دونما معنى ولا جدوى ! ...) وها انا الآن ممددة
على فراشي المكسو بآثار القصف ورائحة البارود انتظر ان أموت او أنجو كما ينتظر ذلك
اي حيوان أليف في قفص من حيوانات الدكان المجاورة ...

توقفت حبات الرمل الاثري عن الصعود من الكرة السفلى إلى العليا ، وتوقف
الماضي عن التكرار ... عادت حبات الرمل لتترلق إلى الاسفل ... إلى هاوية اللاتكرار ...
كل لحظة عشناها كانت فريدة ، كل لمسة ، كل كلمة ، كل شجار ، لانها كلها
تستعصي على التكرار ... إلا في الكواييس .

اظل اأمل هدية يوسف إلي ... الساعة الرملية المدهشة .. حين منحها لي كنت
اعتقد ان رملها سيجري دوماً من الأعلى إلى الأسفل .. كما تقول قوانين الفيزياء جميعاً ..

لم اكن أدري انه ستمر لحظات يصهر ألمي فيها كل منطق ، وتسوس أوجاعي أحصنة الزمن لتركض بحوافرها إلى الوراء ... معيدة الي يوسف وزمن يوسف ولو للحظات ... ترى ، كم كيساً من الرمل تتألف منه سنوات حياتي لو كان رملها يتزلق من ثقب دقيق كالثقب بين هاتين الكرّتين ، وبالسّعة ذاتها ؟ ... وكم فرغ منها ؟ وهل فرغ منها أكثر مما بقي ؟ ... ترى هل تصيبها رصاصة أو شظية من تلك التي تمطر الآن فوق بيتي فيتدفق الرمل دفعة واحدة في دقائق موجزة وينتهي الأمر ؟ . ترى ، كم كيساً من الرمل تتألف منه حياة اي انسان ؟ ولماذا لا يقال لنا منذ البداية « هذا نصيبكم ، فلا تنسوا أن الرمل لا يكف ثانية واحدة عن الانزلاق » ... وحياتي ، اكياس الرمل التي لا اعرف كم عددها ، لماذا لم تكن قط كافية لبناء متراس يحميني من سطوة الغربة والتشرد ، والوعي الدائم بأن وجودي عابر ، وما القرح فيه سوى رقصة مسكينة فوق متراس بحبي مقفر ؟ ... -

اولئك الجالسون فوق اكياس الرمل ، وفي ايديهم الرشاشات ، الا يعلمون ان وجودهم أقل ثباتاً من أكياس الرمل المحكمة الاغلاق التي يجلسون فوقها ؟ كأن جسد كل منا محشو بالرمل ، وفيه ثقب صغير اسمه الزمن ، يتزلق منه الرمل باستمرار ، ويحرمنا في كل لحظة من بعض حصتنا بالشمس والرياح ومتع الحواس ؟ .. ولماذا يخلقون في أجساد بعضهم بعضاً مزيداً من الثقوب لمجرد أن (البيك) امرهم بذلك او اقنعهم بذلك عبر خطبة لغوية بليغة يغطي بها صفقاته ومصالحه المشتركة مع (بيك) الفئة الأخرى التي يتقاتلون وصغارها ؟ ... اولئك الأبرياء الذين يموتون كمجرد أكياس محشوة بالرمل ، متى يرون الرابطة الحقيقية بين متراسهم والمتراس المقابل ؟ رابطة الذل المشترك والقهر المشترك ، والحرمان المشترك من الحب .. اي الفقر على كل صعيد ؟ .. متى ترفض الضحية في بلادي حمل الجلاد على كضيها ؟ ...

* * *

كابوس ٦٠

ما زلت انتظر الغروب لأزور جيرانني ، مخلوقات بائع الحيوانات الاليفة . اتابع قراءة الصحف العتيقة المكدسة في بيتنا ... تبدو لي التسلية الوحيدة الممكنة وفي الوقت ذاته تبدو لي تعذيباً ... اقرأ ... وقرأ ... من أول يوم سجنّت فيها وأنا أعيد قراءتها ...

أراها بعين جديدة .. كل خبر فيها صار له مغزى جديد ودلالة مختلفة .
قرأت الاعلان التالي : من مسلماني وسمير إلى أهلهم في منطقة النبطية . نحن بخير
فاطمثونا !!! ..

غمزني رعب لا حدود له . إنها الغابة . لا أثر للحضارة بعد اليوم حولنا . الهاتف
اختراع تم بعد العصر الحجري ونحن عدنا إلى العصر الحجري ، ولعلي اقرأ الصحف القديمة
وانسح بكتبي كي أوكد لنفسي انني اعيش في هذا العصر المفروض انه عصر الفضاء ..
ربما كانت هنالك مركبة فضائية تنطلق في هذه اللحظة من الأرض إلى كوكب ما لاكتشافه
ومع ذلك ما يزال في كوكبنا من يحيا عذابات العصر الحجري ا ... الصحف وحدها
تجعلني اصدق لدقائق انني ما زلت في عصري نفسه ولم تختل عجلة الزمن ببيروت وتعيدها
فجأة آلاف السنين إلى الوراء . . أية مأساة ان نعيش في وطن يصبح فيه بقاؤنا على قيد
الحياة خبراً يستحق الاعلان عنه ؟ ... لو توقفت الصحف عن الصدور — كما سيحدث
اذا تابعوا تدميرها — كيف سيتصل حسن وسمير ومحمد بأمرهم ؟ كيف سيوصلون
نبأ نجاتهم من الوحوش إلى أهلهم في الطرف الثاني من الغابة ؟ أباللخان على طريقة الهنود
الحمر ؟ بقرع الطبول ؟ .. بالحمام الزاجل ؟ ...

اقرأ : جاءنا ما يلي : « علي فادي يوسف من عرمتي وهو غير علي يوسف الذي عثر
عليه مذبحاً بأيدي (.....) » ، اعجبني صيغة الاعلان .. اذا نجوت فسأُنشر اعلاناً
اقول فيه : اعلن انا انني لست غير التي وجدت مذبوحه في مراحل مختلفة من حياتها
والتي توفيت عدة مرات وقامت من رمادها . واعلن انني ما زلت على قيد الحياة وقادرة
على ان اذبح مرات عديدة أيضاً في المستقبل ا ...

ها هي الشمس وقد بدأت تلملم عباءتها الذهبية وعما قريب تلقي الطبيعة رداء
الليل الأسود .. حان وقت زيارتي لـ كان بائع الحيوانات الاليفة ...
انه الليل ...

ليل المتفجرات والرعب .. ليل الأرواح الهائمة ، الغاضبة ، التي صارت صرخاتها
مكتوبة بلغة الحديد والنار على وجه السماء ..

وأنا اتسلل خارجة من بيتي . اهبط درجات السلم . الحظ بأسى انني احني قامتي ،
ليس فقط عند النوافذ بل على طول السلم ... حتى حينما اتحرك داخل البيت صرت احني

قامتي . صحيح ان تجربة الرصاصة (البلياردو) علمتني ان الانخفاض تحت مستوى النوافذ لا يجدي مع الاسلحة الحديثة ، لكنني رغم كل شيء صرت أخني هامتي إلى ما تحت مستوى النوافذ .. كأنني أنحني لا للرصاص وانما لمنطق الرصاص .. كم هو مذل ان يتحرك الانسان أياماً وأياماً وقد أخني قامته كالأحذب ... حتى ولو عاد السلام إلى هذه المدينة ، فإنه سيجدنا قد نسينا المشي متصيين ، وصارت مشيتنا أقرب إلى مشية القردة ...

انه الليل ...

ليل الوحشية والموت المختبيء حتى تحت اظافرك ... انه ليل الدمار .. وانا وصلت إلى الحديقة وانعطفت إلى خلف المنزل ...

في البداية أخافني العراء .. وأخافني ان اسمع صوت الرصاص في العراء للمرة الاولى .. طوال الأيام السابقة كنت اسمع صوت الرصاص وانا محتمة بالجدران او بالاثاث أو ملتصقة بأي شيء ... اما الآن وانا اقف في الحديقة تحت السماء بجسدي الهش دونما اي نوع من الدروع والمظلات واسمع مطر الرصاص ، تعتريني رجفة خفيفة ..

صوت الرصاص في العراء شيء مختلف ... انه الموت وقد خلع قناعه وتقدم منك .. انك انت تلك النملة في مملكة الليل الشاسعة ... ركضت إلى أقرب شجرة - وكانت نخلة - والتصقت بجذعها ... دفنت نفسي في صدرها العاري وخيل إلي انني اسمع دقات قلبها ... اسمع النسخ يركض في عروقها ... اسمع الخوف يندق طبوله داخل خشبها ... ازداد التصاقاً بها .. نصير شجرتين مذعورتين ... نصير انسانين مذعورين .. نصير حياتين مذعورتين ... ولكنها ستظل مكانها حتى تصيبها قنبلة او لا تصيبها ... انها لا تستطيع مثلي ان تطلق ساقها للريح ... احسست بشيء من العزاء لانني انثى لا شجرة ، ولانني استطعت ان أركض ...

آه صوت الرصاص في العراء وانا وحيدة ... في البداية اخافني إلى أبعد مدى ... كانت كل رصاصة تستقر في جسدي انا شخصياً وكل قذيفة تنسفني انا شخصياً ثم قررت : الرصاصة التي ستصيبني لن اسمع صوتها . والقنبلة التي ستطيح بي لن ترعيني لانني سأكون ممزقة قبل ان أجد وقتاً للرعب ... فلم الخوف اذن ؟ ... كل ما أسمعه لا يمكن ان يؤذيني ما دام كل ما سيؤذيني لا يمكن ان أسمعه . أملني هذا الخاطر ببعض

القوة ، لكنني على الرغم مني ظللت ارتجف كلما دوى انفجار ... سرت في الظلام باتجاه الجدار الخلفي لـ كان بائع الحيوانات الاليفة ... كنت اعرف جيداً مكان الاشجار والنباتات في الحديقة ، لكنني تعثرت أكثر من مرة رغم ان الظلام لم يكن دامساً تماماً ... رفعت رأسي إلى السماء . لا قمر . هنالك فقط بقايا مصابيح الشارع التي ما زال أكثرها يضيء ... اصل إلى النافذة . ضيقة وعلى مستوى الأرض من ناحية الحديقة ، لكنها قد تكون مرتفعة جداً بالنسبة لأرض المخزن ، فكيف أهبط منها ؟ ... ربما كان علي أن آتي معي بحبل . لكنني لم انسلق حبلاً من قبل . ترى هل الأمر سهل كما في الأفلام ؟ كل ما يحدث لي هذه الأيام سبق لي ان شاهدته في الأفلام واكتشفت كم الحياة المعاشة تختلف عن تلك المغامرات التي تزيّف الحياة على الشاشة . قد يكون نحت النافذة كرسى أهبط عليها ... او صندوق .. او أحد أقفاص الحيوانات .. ولكن لماذا استبق الأشياء ؟ فلنحلّ المشكلة خطوة خطوة . المهم أولاً أن افتح النافذة قبل ان أفكر بكيفية الهبوط منها ...

تحسستها في الظلام .. شعرت أنها مكسوة بالأوساخ وبطين جاف ، وان بعض الحشرات او الديدان الصغيرة تركض فوقها مذعورة لوقع اصابعي ... كانت النافذة مغطاة بشريط من (المنخل) داخل إطار من الخشب .. ترى هل خلفه قضبان ؟ سأعود إلى البيت لأحضر مقصاً وأقص به (شريط المنخل) الحديدي الذي يبلو من ملمسه المتقعر ان الصدا قد أكله ... اهز الاطار بيدي فيذهلني كم هو مخمل ، وينذهلني ان النافذة كلها قد خرجت في يدي ... وخلفها لم تكن هنالك أية قضبان ... اي سجن هو هذا ؟ ولماذا لا يحتاط صاحب الدكان خوفاً من هرب رعاياه وعصيانهم ؟ ام ان السجن ليس قفصاً فحسب بل هو أولاً رعايا اذلاء .. ورعاياه من البيغاوات والقطط والفئران والكلاب والحساسين والطواويس لا يستحقون عناء كبيراً لسجنهم والاتجار بهم ؟ ..

مددت رأسي داخل المخزن عبر النافذة ... كان الظلام دامساً ورائحة كريهة تفوح .. والصمت التام غليماً على المكان .. تساءلت : هربوا جميعاً ؟ ام ماتوا جميعاً ؟ ام تراهم مثل بقية أهل الحي يقبعون في الظلام في مخابثهم مذعورين صامتين حائرين ، خائري القوى ؟؟ ... بعد قليل ألفت عيني الظلمة ، ولم أعد أشمّ الرائحة الكريهة

كثيراً ... لاحظت ان سقف المخزن ليس مرتفعاً بقدر ما كنت اتصور ، واني استطيع ان أدلي بجسدي من النافذة ثم اقفز على الأرض بسهولة ... ولماذا السقف المرتفع ، وهل نهم صاحب الدكان الشروط المعيشية الصحية الجيدة لحيواناته ، ام أن كل ما يعنيه هو ان يقيهم على قيد الحياة كي يتابع إيجاره بهم ؟ ..
انه الليل ...

وانا قد قفزت إلى داخل الدكان ... قفزتي أثارت همهمات واصواتاً غريبة ... اذن لم يموتوا ولم يهربوا ، ولكنهم مثل بقية أهل الحي تماماً ... في حالة ذعر وخوف ... وها هم يحسون بوجود جسم غريب داخل المكان ، ويحاولون عبر قلقهم وخوفهم الغريزي تحديد كنهه .. هل هو حيوان من فصيلتهم (صديق) ام من فصيلة اخرى (عدو) ؟ وما نتيجة دخوله إلى سجنهم ؟ .. لعل كل حيوان منهم يفكر بي ، انا ذلك الكائن (الغريب) الذي دخل دكانهم ... لعل البيغاوات متضايقه الآن ، فقد حفظت ثروة صاحب الدكان عن (السيادة) ، اي عن (سيادته) هو عليها وهي الآن بحكم (ببغاوية) ما حفظته تعلن بأن دخولي إلى الدكان تحد للسيادة (١) ... ولكن ، اية (سيادة) هذه ؟ اية سيادة لمن يسكن قفصه ، ويقضي وجوده سلعة تباع وتشترى لاصحاب النزوات والأثرياء من اي مكان جاءوا ؟ ... اية سيادة لمن حياته سجن بلا نهاية ؟ ...

وصحيح أن بعضها الذي يعرض في الواجهة الخارجية يعيش في ظروف نموذجية تلفت أنظار الزبائن ، وتجعل الحيوانات في المزارع الأخرى المجاورة تشعر بالغيرة من ترف تلك القاطنة في شروط عصرية نموذجية ، لكن الأكثرية الساحقة من مخلوقات بائع الحيوانات الليفة تعيش هنا خلف جدار التلك المرتفع الذي لونه رجل الديكور ورسم عليه مناظر طبيعية بديعة لشاطئ ساحر تعلوه الغابات المزروعة بالأرز والقمم المتوجة بالثلوج ١ ... اية (سيادة) هي هذه ؟ ! .. كانت البيغاوات أول من واجه دخولي بشكل عدائي . كانت اصواتها غاضبة ومتحدية في البداية ، ثم صارت خافتة ... صحيح انها بحكم طبيعتها الببغاوية لا تملك إلا ان تكرر الأسطوانة التي حفظها إياها سيدها ، لكنها أيضاً بحكم بؤسها وارهاقها لا تملك إلا أن تصمت أو على الأقل تكف عن تكرارها بحماس ... ببغاء واحد ظل يصيح : مرحبا يا ضيف . انا نحبك ... اشتريني (تماماً كما قد ينطق بها فرنسي سائح) ويقول بعدها على التوالي : اطلع يا غريب .. السيادة

اولاً ... وكان البيغاء يكرر العبارتين كما لو كانتا وجهين لعملة واحدة ...
 ووسط هذا الليل الخطر المرعب وجدت صوت البيغاوات مضحكاً ... وانفجرت
 أضحكك بصوت عال ، فأنا لست من (جماعة الزبائن) أصحاب الثراء ولا أجد سبباً
 يدعو لاعتباري (الغريب) غير المرغوب فيه ... أليس بؤسنا واحداً ؟ خوفنا واحداً ؟
 قلقنا وحيرتنا وخاوفنا وبالتالي مصيرنا واحداً ؟ ..
 سكنت البيغاوات ... لم تبق غير مهمة جماعية كبقايا صوت مظاهرة مقهورة
 أمام هراوات رجال الشرطة ... مزيج عجيب من مواء وعواء و « هسيس » .. أجل لم
 تكن العصافير تغرد أو تزقزق بل كان صوتها أشبه بغمغمات مختصر .. كان الصوت
 رهيباً خيفاً مليئاً بالهول ، بل كان كالصوت البعيد القادم من قبيلة من الجرحى والمحتضرين
 الذين ادمتهم الحرب وحرقت اطراف ثيابهم واهدابهم واقدامهم ...
 وحينما عادت الانفجارات شعرت ببعض الراحة ... فصوت العذاب الحيواني أشد
 ليلاً قلبي حتى من صوت الرصاص المصهور في فوهات البنادق ...
 هذا الرصاص ... عادت المهمات .. وسمعت نفسي أقول لهم بصوت عال :
 شعبي الكريم ! ... (سمعت صوتي وخفت منه وخيل اليّ اني بدأت أصاب بمس من
 الجنون) ... ولكنني تابعت : يا شعبي الكريم ... بلاغ رقم واحد ... جئت احمل لكم
 الخلاص ... وردت علي الحيوانات بارتفاع مهمتها التي كانت تحمل كثيراً من
 الخوف .. صرخت بهم : صفقوا لي .. وانفجرت أبكي ... شعرت بانني ممثّل صغير
 بائس مهزوم ممثّل وحيداً على مسرح بائس مهزوم مثله ...
 كانت عيناى قد ألفتا الظلام النسبي تماماً ... تذكرت انني هنا لأحضر لهم الطعام
 والماء ولأثقف حالهم ، لا لأصاب بجنون العظمة وأنصّب نفسي أميرة على مملكة البائسين ..
 الأسياد لا يتقصونهم ولكن يتقصهم الماء .. والغذاء ... وكل شيء آخر ما عدا (الزعماء) ..
 فوجئت بالطعام في أقفاصهم ... وبالماء أيضاً ... لم يكن قد نقص ولا زاد ... كان
 في الأقفاص ما فيه الكفاية ليعيشوا أياماً ... ترى هل غامر صاحب الدكان وجاء
 لاطعامهم ؟ اشك في ذلك . لعل الشاب الصغير الذي قتله القناص هذا الصباح كان من
 (المتحمسين) لصاحب الدكان ومن اتباعه وقد غامر بحياته ليؤدي هذه الخدمة ! ...
 كم هو مفعج مصير اولئك الشبان الصغار الذين يتوهمون انهم يقومون بعمل (اخلاقي)

والمشوهين والبؤساء ، وهو أشدّ الجميع يؤساً ...
أعاود مخاطبتهم : يا شعبي الكريم ... قررنا منحكم أمن ما في الوجود ... الحرية ...
وكان صوتي يقلقهم أكثر مما يرعيني (يرعيني ان أكون مشرقة حقاً على الجنون) ...
وخلف كل جملة أصرخ بها ، تعلو همهماتهم الموحدة ... العواء المتعب للكلاب ..
عواء أقرب إلى المواء .. ومواء القطط الشبيه بالأنين .. وصوت العصافير الذي لا يشبه
الزقزقة ، بل هو أقرب إلى أصوات شخير شيوخ محتضرين .. وشهقات الأرناب ونعيب
القطران الأقرب إلى صوت البوم منه إلى صوت العصافير . وامتلات ألاماً لحال تلك
المخلوقات السجينة البائسة (أم كنت أرى وجهي في مرآة ؟ أم كنت أرى حيتنا بأكله ؟
مدينتنا ؟) ... وقررت : سوف أطلق سراحها ... سوف أمنحها الحرية والفرح ..
وغداً حين يأتي صاحب الدكان الذي يعتاش من بيعها ، لن يجدها ... سأحررها من
البؤس الذي تحياه ...

لحظات وأفتح أبواب الأقفاص كلها ... لحظات وأسمع خفق أجنحة العصافير
وهي تطير عبر النافذة وفوق الأشجار إلى البحر الذي لا بد وأنها تفتقده في سجنها
المعدني ، وتهرب من هذه المدينة المجنونة إلى الغابات ... لحظات وأفتح باب سجن كلاب
الصيد ، لتنتقل مجنونة تشم رائحة الزعر البري والليل النقي هاربة من جحيم الاسر ...
لحظات وتخرج القطط وهي تموء كما لو كانت ترغرد ، وقد تمشي على قائمتين بدلاً من
أربع لشدة الفرح ... لحظات وتنتقل القطران البيض وتسلق الأغصان وتنام ملتفة بأوراق
الأشجار ... لحظات ويخرج الطاووس ليفرد ذيله بأكله دون ان يتقصف ريشه بين
قضبان السجن ويترك المطر يغسل ألوان ريشه الصدفية والفجر يلمعها والريح تركض
عبرها ، فيزهو وينتعش وبجيا ... وحتى السلاحف التي لا تستطيع تسلق النافذة فسأحملها
بيدي إلى النافذة ، وأرقبها تحلع صدفاتها وتركض بأسرع مما يركض الأرنب ... لحظات
وتتحول كآبة هذا السجن إلى مهرجان حين تمسه يد الحرية ... ولكن بمن أبدأ او اي
الأقفاص أفتح أولاً ؟ .. خشيت ان افتح قفص القطط قبل القطران فتتظر القطط القطران
عند النافذة وتلتهمها .. خشيت ان افتح قفص الكلاب قبل القطط ، فتطارد الكلاب
القطط وتؤذيها ... وكان من المهم أيضاً اطلاق الطيور قبل الكلاب والقطط معاً لئلا
تنشأ معركة جوية - أرضية بينها ..

قررت ان تتم عملية (تحرير) مخلوقات بائع الحيوانات الاليفة على الوجه التالي :

اطلاق سراح الطيور أولاً ثم القتران . فالطواويس . فالقطط . فالكلاب . كان لا بد من (التخطيط المرحلي) للعملية ، وقد فوجئت بذلك ، والا لخططت له طوال النهار .

يدي ترتعد وانا افتح أقفاص الطيور كلها من حساسين وبلابل وبيغاوات . شيء رائع ان نصنع الحرية ... كان الباب صدئاً ، لكنه لم يكن محكم الاغلاق .. صرير حاد صدر عن مزلاجه ، وبدا لي ان الطيور اجفلت قليلاً كأنما أخافها صوته ... فتحت الباب على مصراعيه ، وفوجئت بأنها لم تتجه اليه لتطير هاربة صوب الحرية والليل والرياح والسموات ودروب المجرة ، وإنما سارت تلقائياً نحو المكان المعد لطعامها كما لو كانت عمياء او منومة مغناطيسياً .. لقد اعتادت ان يتم فتح باب السجن لمجرد اطعامها ، ولعلها تظن انه اعيد اغلاقه ... فتحت أبواب أقفاص الطيور ، وهالتي ان عصفوراً منها لم يطر ... كأنها نسيت الحرية ... كأن خيوطاً لامرئية تربطها بجدران سجنها .. جلست ارقبها مذهولة .

لم تعد المتفجرات ترعبي . لم تعد أصوات الرصاص تخيفني ... مشهد الطيور القابعة في سجنها رغم بابها المفتوح ملأني بذهول وخوف لم أعرف لهما مثيلاً طوال حياتي ... دوماً تخيلت الطائر جائعاً للحرية ، يقضي ليلته وهو يضرب جدران القفص بمخاذه وبابه برأسه ... دوماً تخيلت اني ما أكاد افتح الباب للعصافير حتى تنطلق فوراً طائفة نحو شمس الحرية ... ولكن ، في هذا الليل الدليل الطويل ، تبدت لي صورة مروعة للطبيعة (الحيوانية) ... تقدمت منها ، وحملت في يدي بطائر ، واحسست بجسده ينبض داخل يدي دافئاً وربما خائفاً ، بل خيل لي اني أحس بضربات قلبه ، حملته وقلدت به نحو النافذة ... فرد جناحيه قليلاً ، قليلاً جداً بما فيه الكفاية ليكون سقوطه على الأرض متوازناً وأقل إيلاماً .. واستوى واقفاً على قدميه وعاد فمشى باتجاه قفصه وطار بمخاحين مضطربين ليستقر على مدخله ، ثم مشى إلى داخله واختبأ بين بقية زملائه السجناء .

صعقتني المشهد ... فانطلقت كالمجنونة افتح أبواب الأقفاص جميعاً ... واصرخ بها جميعاً .. فكانت تهرب من موقع الباب وتمعن هرباً إلى أبعد بقعة داخل السجن وبعضها يحتمي ببعض ... كأن الحرية غول قابع بانتظارها ... كأنها نسيت كل شيء عن الطبيعة والسماء والركض والتحليق والسباحة ، نسيت كل شيء عن الحرية والفرح وتحصيل رزقها ومتع الصيد في دروب الفصول الأربعة ، مكتفية بنصيب يقيم أودها بينما هي

مختبئة داخل أوكارها مذعورة من الرصاص راضية بهذا السجن الخامل مسلمة أمرها إلى الأقدار .. وإلى سيدها صاحب الدكان .. ذكرتني بحال أهل حينا ، حيث يهدأ القتال في أوائل كل شهر ، فيذهب كل واحد لقبض راتبه أو نصف راتبه أو رבעه كما يشاء له رب عمله ، ويعود بعدها راكضاً إلى بيته - القفص - حاملاً ما استطاع تخزينه من طعام ، قابلاً في عاصفة الريح والنار والجنون مكثياً من حياته بأحط أنواع الوجسود البيولوجي ! ...

كانت أبواب سجون دكان بائع الحيوانات الاليفة كلها مفتوحة ، ولم يهرب أحد عبر النافذة ... بعض القطط مد برأسه من باب السجن دون ان يُخرج جسده منها .. كلب خرج وتجول قليلاً في أرض الدكان - السجن - ثم عاد إلى القفص المعد له بالذات . لم يفكر حتى بالدخول إلى قفص آخر على الأقل ... شعرت بأن المشهد يثير جنوني ، فركت الدكان وانطلقت هاربة .. تسلفت النافذة ، وخرجت منها كما دخلت ، وأعدت إطارها إلى مكانه ، ولم أحكم إقفالها بحيث تستطيع الحيوانات الخروج منها فيما لو حاولت أو رغبت حقاً بذلك ... في الخارج كان الليل بانتظاري ، بارداً وكثيباً ، والرصاص لا يهدأ ...

ركضت إلى النخلة ، ودفنت وجهي في جذعها الرطب وفاحت في أنفي رائحة الأرض ... وبكيت طويلاً طويلاً وقد الصقت صدري بصدرها ... وخيل إلي أنها لم تعد خشباً ، وان جذعها رقيق لي ، وهزرت إليّ بجذع النخلة ، وخيل إلي أن شيئاً رطباً نقياً يتساقط علي .. وشعرت ببعض السلام يغمر روحي الممزقة ..

كابوس ٦١

للمت نفسي عن جذع النخلة . عبرت الحديقة ركضاً وقد حنيت هامتي كالقروود : انها مشية البشر في زمن الحرب الأهلية ! .. وصلت إلى مدخل البيت .. سمعت صوت انسان يتنفس عند المدخل . كان الظلام دامساً . تحولت إلى اذن واحدة كبيرة متحفزة وأرهفت السمع ... شملت رائحة خاصة ، رائحة الخوف ، ولم أكن أدري هل تفوح مني أم من ذلك المجهول القابع في الظلمة ... تراه خائف كخوفي ؟ أم ينتظرنني وفي يده سكين ؟ تراه الموت ؟ تراها رصاصة ؟ ترى هل يحس الموتى بالرصاصة التي تقتلهم

كما لو كانت شخصاً له قدمان ينتظرهم في الظلام ؟ إن أحداً لم يعد من الموت ليروي لنا بالضبط ماذا يحدث في تلك اللحظة الحادة الرفيعة الفاصلة بين الموت والحياة . تراني اواجهها ؟ ... وكانت صرخة قد تجمعت في صدري وبدأت تأخذ طريقها إلى خنجرتي .. وقبل ان اصرخ صرخ هو ... وعرفت صوته .. انه الخادم نصف العجوز للعم فؤاد ... صرخت معه في آن واحد تقريباً : لقد اربعيتني ... وقال ، وكاد يغمى عليه : لقد اربعيتني ! ... وأضيء النور . وعلى العتبة ظهر العم فؤاد : ابن كنت ؟ لقد قلقنا عليك ...

قلت له محاولة تجنب اي حوار : لقد عدت وأنا بخير ...
كان من الواضح أنهم بحثوا عني طويلاً وقلقوا فعلاً وكانوا متلهفين لتلاوة التفاصيل عليّ ، كموضوع للحوار في بحر الضجر والخوف الذي نعيم فيه . كان جوابي حاسماً وقاطعاً ، كجواب عائد من جنازة دفن فيها أحب الناس اليه .
كنت أعرف انه لا مفر لي من النوم في دارهم .. فالطابق الأرضي أكثر أماناً من بيتي بالطابق الثالث في ليل الصواريخ .. اتجهت نحو الغرفة التي نمت فيها بالليلة السابقة وانا أقول بصعوبة : تصبحون على خير ... سألتني أمين بالفرنسية : ألا تأكلين شيئاً معنا ؟ .. لم أجب ! ...

* * *

كابوس ٦٢

الغربة قدرتي ...
رائحة الغرف غير المألوفة ... الأثاث الكتيب الذي أحسه يرفضني .. لا أدري لماذا أشعر بالانتقاص الشديد وسط هذا الديكور الجنازري ، ففي هذه الغرفة ماتت زوجة صاحب الدار بين يدي .
(كنت أهبط الدرج ذاهبة للقاء يوسف . فتح أمين الباب وكان يرتجف والحيرة تقطر من وجهه ... بصوت باك قال كلمة واحدة : أمي ...
دخلت اليهم ... كان العم فؤاد يحتضنها ويناديها : ليلى .. ماذا بك ..
تقلعت منها .. كانت بلا حراك ويدها نصف باردة وقد تسالت زرقة خفيفة الى أطرافها ... وفي عينيها كانت هناك نظرة لن أنساها في حياتي ، كان هنالك شعاع انحسر

ولم يعد مصوباً الى الخارج ، الى عالمنا ، بل كأنه عكس اتجاهه الى الداخل أو الى عالم
نجهله . نظرة عينيها جعلتني أتأكد في لحظة كالبرق : انها ميتة ...

لم أجرو على اعلان ذلك . ربما أيضاً كانوا يعرفون ذلك ولا يواجهونه . قلت
لهم : هل اتصلتم بطبيب ؟ بدوا وكأنهم يسمعون عبارة « طبيب » للمرة الأولى في
حياتهم . كانوا يرفضون تصديق أن حالتها تستدعي حتى التفكير بحلب طبيب صرخت
بأمين : اتصل بالاسعاف .

نهض العم فواد وتركها بين ذراعي جثة هامدة ... وغمرني الدعر كما لو أنهم
دفنوني حية تحت جسدها الميت ، لكنني بقيت بلا حراك حتى جاء من رفعها عني ...

ذلك اليوم ، ركضت الى بيت يوسف متأخرة عن مواعدي . بدا لي غاضباً لكنني
لم أفسر . لم اعتذر لم أبرر . أغلقت باب الدار خلفي وباشرت خلع ثيابي فوراً ...
كانت أول مرة أتعري من ثيابي كلها أمامه ... كومتها على الأرض ، وتمددت على
البلاط في الدهليز ورأسي متجه صوب باب الخروج وناديت : تعال !) ...
ولكن ، لماذا أنهم ذكرى هذه المرأة التعسة بما أحسه الآن من خوف ؟ .. لماذا أنهم
الماضي ؟ ام تراني هاربة من مواجهة عذابات الحاضر المروع الى ماض أقل فظاعة ؟ ..

لماذا لا اعترف انني وحيدة وخائفة في هذا الليل الجهيمي الذي يحيق بي من كل
جانب ؟ لماذا لا اعترف بانني بائسة لموت يوسف ، لا أجد لغايه تعويضاً ولا عزاء ؟
وقلقة أيضاً لسجن أخي ، غاضبة منه وآسفة لأجله في آن معاً ... لماذا لا اعترف انني
أحس بالفجعة بينما الحرب الأهلية تعري أمام عيني اكنوبة الاستقرار التي كدت اسقط
في فخها ...

لقد كنت دوماً وحيدة ، مشردة بين القارات والمدن والشوارع والرفاق ، مما
سبب شبه قطيعة بيني وبين اخوالي السوريين ... لقد كنت دوماً غجيرة المدن ، ما أكاد
استقر في مدينة أوروبية حتى أرحل الى أخرى بعد ان أخلف ورائي بيتاً ومهنة ومكتبة
وحلقة صغيرة من الأحباب والأعداء .. لقد كنت دوماً راحلة بين الدروب ، شعري
ومساتي ، وجسدي حقيقي ، ولقائي بيوسف وحده جعلني أحس أحياناً بالحاجة الى
كهف أضع فيه طفلي منه بعد الحمل ... لكنني لم أحمل ولم أضع ومضى يوسف . ورغم
كل شيء حاولت ان أتابع حياتي إنطلاقاً من الاستقرار الداخلي الذي خلفته علاقتنا في

نفسي ، والتزامي بأرضي الذي جاء كردة فعل واعية رافضة لإرتباط مزيف باوروبا ...
أية مهزلة ! اني يوم انضلت من بيت اللامعقول إلى بيت الاستقرار ، جاءت الحرب
الأهلية لتكشف لي اني بنيت بيتي في مركز الزلزال ... أتراها كانت صدفة أني يوم
قررت أن أنظم مكتبي ، واكتب لها ارشيفاً والتصق بها حتى أموت ، اندلعت الحرب
في بيتي وجاءت أول رصاصة لتستقر في رف مكتبي بالذات ؟ أتراها صدفة ، أم ان
القدر أراد ان يذكرني بالدرس الذي كدت أنساه ... بأن الحقيقة الانسانية الأولى هي
التشرد ، وان الاستقرار ليس أكثر من محطات أنس عابرة . وان الاستقرار مستحيل
في وطن غير مستقر ! ..

آه يا يوسف ... يا عيناك ، يا صدرك يا صوتك يا أنت ... تقدم ... ها أنا أفتح
ذراعي لك في ليل الصواريخ والمتفجرات .. تقدم فالموتى لا يخشون رصاصة اضافية ..
تعال اليّ واتحدني ، ها أنا ممددة على البلاط في مملكة الغربة ، وقد وجهت رأسي صوب
« باب الخروج » من هذا العالم ... صوب الموت ، قبلة المشردين ... فتعال إلى غجريتك
يا يوسف ...

كابوس ٦٣

نعم . يألف الانسان صوت الرصاص بمرور الزمن ، ويصير قادراً على النوم رغم
طلقاته ...

ورغم المعركة التي كانت تدور بالرشاشات في « شارع الحوراني » المجاور لوسادني ،
وجدتني انزلق إلى بئر النوم والكوابيس ، بدلاً من التحليق في سحب « حلام ...
منذ الأيام الأولى لسجني وسط هذه المعركة المجنونة وأنا لم أذق طعم النوم .. وكنت
أتساءل : ترى هل ستأتي لحظة أستطيع النوم فيها رغم الرصاص ؟ ..
وقد أتت اللحظة .. وجسدي الذي اتوهمه هشاً ، يحوي طاقات مريبة مذهلة على
التكيف . ولكن الألفة مع الرصاص تشبه ألفة المريض مع سرطانته ... ونوم ليل الرصاص
يشبه نوم الجريح المتوجع الذي أنعم بالمورفين ...
انه ليل الكوابيس ...

لا أحس بسرير تحتي ... اشعر بانني ممددة في الفضاء ، تحيط بي رياح الليل والمجهول

من كل جانب ، نحملني وتطير بي عبر غابات أشجارها أجساد بشرية ممزقة تترف وتصرخ ، تطير بي فوق سهوب محروقة يركض أطفالها كالقطط الصغيرة المفترسة المكشرة عن انياب دقيقة وحادة ، تطير بي فوق بحار تغلي مياهها السود بفقااعات الكبريت والملح والزرنيخ ، وفي جزرها القليلة نسكن قبائل مصابة بالجذام ... وانا أسبح في ليل الكوايبس اللامتناهي ، ويمد المجذومون أصابعهم المتآكلة فيمسكون بشعري ، ويشدونني إلى الأرض ... ويدأون بالتهامي ... واصرخ .. ثم اتابع طيراني ، عائمة في الفراغ فوق فراش الليل والمجهول والكوايبس .

* * *

كابوس ٦٤

القناص يجلس فوق سطح العمارة المواجهة للبحر ، وله عين واحدة كبيرة في منتصف وجهه ...

منذ أشهر وهو لا يبدل جلسته ، ويؤدي مهمته التي لم يعد يذكر كيف ولماذا بدأ يمارسها ... كل ما يعرفه الآن هو أن عليه ان يقتل أكبر عدد ممكن من الناس ... كان في البداية يتوهم ان مهمته ستكون أكثر صعوبة ، وأنه سيضطر إلى الركض كثيراً حول أطراف سطح العمارة كي يستطيع صيد الناس .. كان يظن صيد البشر أكثر صعوبة من صيد العصافير . لكن ما أدهشه هو ان الناس كانوا يأتونه طائعين ... حينما صارت عمارته مركزاً لإطلاق النار ، ظن أن الناس سوف يتجنبونه ، وسيكون عليه ان ينتقل إلى عمارة أخرى . لكن المدهل ان الناس كانوا يقبلون إقبالاً عظيماً على الوقوف داخل مرماه طائعين ... كانوا يأتونه كل يوم أسرة بعد أخرى ... تأتيه الأسرة بكل أفرادها الشيوخ والأطفال ، وهو يطلق الرصاص عليهم . وحين يصابون بالرصاص ، يلوحون له شاكرين ثم يسرون خطوات قليلة نحو البحر حيث يسقطون .. بعدها بلحظات تأتي موجة تكنسهم عن الشاطئ وتفرغ المكان للأسرة اللاحقة بهم .. وهكذا ...

انه يشعر بأن أهل بيروت يمارسون انتحاراً جماعياً ارادياً ما داموا يأتونه طائعين هكذا ... لقد حرموه لذة الصيد ، وحولوه من قناص مزاجي إلى جلاد مثقل بالعمل ... كان يشتهي لذة مطاردة الرجل ، وتخريفه ، وإطلاق الرصاص أمام قدميه أولاً ، ثم جرحه في يده كي يتابع ركضه ، ثم إطلاق الرصاص على بطنه ليموت ميتة مؤلمة طويلة

الاحتضار ... ولكن أهل بيروت يفاجئون بشهيتهم للموت ، وبانتحارهم الجماعي المثير ...

أنهم يأتونه حاملين مرضاهم على النقالات المصنوعة من الخرق الرثة ، وعلى العكازات ، وعلى ظهورهم ، ويطرحونهم أمامه كما لو كان يملك لمسة الشفاء ... ويحملون أطفالهم الرضع على ظهورهم ويحينون ... ويقفون في مرمى محدد بحيث يسهلون مهمته إلى أقصى الحدود ... لا يتحركون .. وكل ما عليه هو أن يطلق النار ...

بل أنهم رسموا ديكوراً لمكان انطلاق النار شيئاً بتلك الديكورات الكرتونية التي يستعملها المصورون في مدن الملاهي والألعاب ... وقد ظهرت في الكرتون الملون صورة لنخلة ولأرزة مرسومتين برداءة .. كانوا يقفون أمامه كما يقفون أمام المصور لالتقاط صورة ، صورتهم الأخيرة . ولم يكونوا ليتسموا أو يبكوا .. كانت ملاحظتهم جامدة وغامضة كلامح الذين يقفون أمام الكاميرا لالتقاط صورتهم الأمامية والجانبية قبل الدخول إلى السجن ...

كانوا يمارسون انتحاراً جماعياً مذهلاً ... والقناص غاضب يشعر بأنه مغبون في الصفقة . إنه الآن مجرد موظف محترف ، ولم يعد يستمتع بعمله بعد ان حرم من نشوة القنص .. بل انه ذات يوم ، ضجر من تلك العائلات المنهمرة عليه للانتحار ، وسم من قتل هدف لا يتحرك ولا يهرب ولا يشكو ، فحول بندقيته إلى السماء ليطارد طيراً ابيض كان يحلق بنشوة صوب البحر الأزرق الشاسع ... وأطلق الرصاص على الطائر فأخطأه ... كانت أول مرة في حياته يخطيء هدفاً حياً .. لكنه لاحظ ان يده صارت ترتجف وان أصابعه فقدت مرونتها ومهارتها ، وان عينه الواحدة الكبيرة صارت ترمش وهي تحديق من خلال عدسة التصويب ... كانت نشوة الصيد حياته ، وقد خسرها .. لقد قتله ضحاياه ... قتلوه ولم يقتلهم .. كانوا يتتحرون وكأنه يسدي لهم خدمة ! ...

ها هي أسرة جديدة تصل . تصطف أمامه . يطلق الرصاص . كل منهم يتلقى رصاصه في جبينه ثم يمشي صوب البحر ليموت بعد ان ينحني شكراً له ... ولكن شيئاً غريباً حدث ... لقد انقضت ساعات ولم يأت أحد ليموت ... لم يعد يسمع صوتاً .. لقد توقف كل شيء . مات كل شيء حتى الريح .. ماتت الأصوات . وجثث الرياح ممددة على الأرض صفة .. جثة السماء ممددة على الأفق وقد سرت فيها زرقة رمادية داكنة ...

جثث الألوان مكومة تحت الأشجار كأوراق الخريف .. لا صوت .. لا حركة .. لا طائر يخلق ، ولا طائفة تعبر السماء .. جثة الرحيل منسية ، والزوارق على الشاطئ مقلوبة وباطنها نحو الأرض وقعرها الذي تغمره المياه عادة متجه نحو الأعلى كرجل ممدد على بطنه ، ووجهه إلى الأرض وقد فارق الحياة ..

ها هو رجل قادم من آخر الزقاق ... انه يسير بحذر . انه يبدو مذعوراً .. خائفاً قلقاً كطريدة ... لعله آخر رجل في المدينة ، ومن الأفضل أن يُبقي عليه ليتحدثا معاً ولا يبقى وحيداً . لكن الدم تدفق حاراً في جسد القناص ... نسي خوفه ... عاوده عطشه إلى القنص والدم .. حمل بندقيته وجمع كل ما في جسده من طاقة وشهية للاقتراس وأطلق النار ... كانت الطلقة محكمة ... أصابت الأرض على بعد خطوة من الرجل ... كان ذلك بالضبط ما يريده ... كان يريد تخويله وقد نجح .. طلقة أخرى محكمة اصابت الرجل في يده .. وبدأ الدم يتزف منها ، وفرح القناص ولم يلحظ أن الدم كان يتزف من يده هو أيضاً وفي الموضع نفسه ... طلقة ثالثة محكمة في الفخذ .. سقط الرجل أرضاً وبدأ يتزف ولم يلحظ القناص أن الدم كان يتزف من فخذيه هو أيضاً ... طلقة رابعة محكمة ، في البطن ... لم يعد الرجل يزحف وإنما استسلم للإحتضار البطيء ، ولم يلحظ القناص أنه كان قد بدأ يتزف من بطنه أيضاً ... وفي الموضع نفسه ... لكنه يشعر بتعب شديد ، فيقرر الاجهاز على ضحيته برصاصة الرحمة ، لكنه يشعر برغبة في رؤية وجهه يركض إليه ، وحين يقلبه على ظهره يرى ان له وجهه مو .. كما لو كان يحدق في مرآة ! ... بعدها فقط أحس بالألم المروع في أحنائه ، وعرف أنه سيموت ميتة بطيئة مؤلمة طويلة ... ولم يكن بوسعها ان يطلق النار على رأسه ليختصر عذابه ، فقد كانت بندقيته طويلة ... أطول من ان يلصقها برأسه ثم تصل أصبعه إلى زنادها .

* * *

كابوس ٦٥

نعم ، يألف الانسان صوت الرصاص بمرور الزمن ، ويصير قادراً على النوم الكابوسي رغم طلقاته .. أما الصواريخ فلا ... أما القنابل فلا .. خصوصاً اذا كانت تسقط على بعد أمتار منك ...

كان اللوي الذي ايقظني مروعاً ... قفزت عن السرير ، وركضت إلى النافذة ...

كان من المفروض أن أركض إلى ما تحت السرير ، ولكن وجدني أمام النافذة ، كأن الحس بالفضول يعادل الحس بالخطر ان لم يكن يفوقه ..

كانت النار تندلع في فندق « الهوليداي إن » المقابل ... والانفجارات تتوالى ورقعة النار والدخان تتسع .. والفجر الرمادي الشاحب بدأ يتوغل في المرائب أمامي ، وخلف النافذة في الحديقة كانت شجيرة الياسمين ما تزال مزدهرة ، وأزهارها البيض تبدو كالنقاط المضيئة وسط هذا العالم الرمادي القاحل ...

شعرت بالحق على الفندق ، وعليه (شخصياً) كبناء ... قبل ان يشيدوه ، كنت أستطيع ان أرى البحر ، والمراكب البيض ، ثم فجأة صبوه أمام عيني مثل جبل من الاسمنت والحديد ... ومن يومها (ازدهر) الحى ، بمعنى ان الأسعار ارتفعت وحركة السير تضاعفت ولم أعد أجد مكاناً أوقف فيه سيارتي ظهراً حين أعود من عملي مرهقة كعجينة تحت أصابع فلاحه .. وها هو اليوم مركز للدخان والنار ...

كان هنالك صوت خافت في داخلي يدافع عن المبنى ، ويقول لي ان عشرات الأسر ترتزق منه ، وانه لا يحق لي ان أحقد على مبنى لمجرد انه يحجب عني الشمس والبحر ، ولمجرد انه يقصف ويسبب لي الرعب .. لكنني في تلك الساعة من الفجر المبكر ، والخوف يقرض أطراف عظامي ، لم أكن على استعداد للمحاكمات العقلية الطويلة .. وكانت هنالك مشكلات عملية أخرى تواجهني ، ابرزها ان الخبز يكاد ينفد تماماً لدينا ، وانني عاجزة عن أكل ولو قطعة لحم واحدة لكثرة ما شاهدت من الجشث وصورها وحكاياها - على أية حال نفذ اللحم أيضاً - وصرت شبه قانعة بأن كل ما نأكله هذه الأيام هو لحم بشري ١ . وقررت الصعود إلى بيتي في الطابق الثالث وتفقد أحواله (العسكرية) ، وتفقد خطوطه (التموينية) أيضاً ...

توقف القصف وساد من جديد ذلك السكون المتوتر ... سكون ساحات الحرب الذي يختلف عن اي سكون آخر .. انك تستطيع الانتصات اليه ، واذا استمعت جيداً إلى صوت السكون فستسمع أشياء كثيرة ... سمعت همهمات مخلوقات دكان الحيوانات الاليفة ... اذن لم تهرب بعد . ترى هل هرب بقية أهل الحى . كانت النوافذ كلها موصدة كنوافذي ، وعلى إحدى الشرفات ثياب طفل ما تزال منشورة على الحبل منذ تحول إلى جبهة حرب ، ولم تجرؤ أم الطفل على جمعها .. ام تراهم غادروا المنزل ؟ ...